الملخص

جاءت هذه الدراسة تحت عنوان: الخصائص البلاغية للقيد بـ[من] الشرطية في الصحيحين.

واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في مقدمة، وتمهيد، وعدة مطالب، وخاتمة، وفهارس، وبيان ذلك كما يلي:

مقدمة، وتضم: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، وأهدافه، وكيفية تقسيمه، والمنهج المتبع في دراسته. ثم التمهيد وعنوانه: تحرير المصطلحات، وبلاغة القيد بـ[من] الشرطية، وفيه، أولًا: تحرير المصطلحات. ثانيًا: بلاغة القيد بـ[من] الشرطية.

ثم مطالب البحث، والتي أتت على النحو التالي: المطلب الأول: تصعيد المعاني في صورة القيد بـ[من] الشرطية. المطلب الثاني: تقديم الجزاء على العمل في صورة القيد بـ[من] الشرطية. المطلب الثالث: تقديم العمل على الجزاء في صورة القيد بـ[من] الشرطية. المطلب الرابع: وصل الجمل المقيدة بـ[من] الشرطية واشتراكها في المعنى الأم. المطلب الخامس: بناء القيد بـ[من] الشرطية من بنىً موحية إثراءً للدلالة. المطلب السادس: قوة السبك بين القيد والمقيَّد. المطلب السابع: وصل جملتين مقيدتين بـ[من] الشرطية اختلف العمل فيهما والجزاء واحد. المطلب الثامن: بناء صورة القيد بـ[من] الشرطية على الإيجاز. المطلب التاسع: التعبير بالمشاكلة في المقيَّد. المطلب العاشر: الربط بالفاء بين القيد والمقيد مراعاةً للمقام. المطلب الحادي عشر: ثراء صورة القيد بالصورة البيانية. المطلب الثاني عشر: مخاطبة الجمع بصيغة الإفراد، خروجًا على خلاف مقتضى الظاهر. المطلب الثالث عشر: تقييد ما قُيِّد بـ[من] الشرطية، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج، ثم الفهارس.

Summary

This study came under the title: The rhetorical characteristics of the restriction of the [policeman] in the correct.

The nature of this study necessitated the introduction of a preface, a preface, several demands, a conclusion, and indexes, as follows: Introduction, and includes: the importance of the subject, and the reasons for selection, and previous studies, and the problem of research, and objectives, and how to divide, and the methodology used in his study. And then the boot and address: edit the terminology, and the eloquence of the restriction of [the] conditional, and in it, first: the editing of terms. Second: the eloquence of the restriction by [the] policeman. And then the demands of the research, which came as follows: The first requirement: the escalation of meanings in the form of the restriction of [the] conditional. The second requirement: to provide the penalty for the work in the form of the restriction of [police]. Third requirement: Submission of work on the penalty in the form of the registration of [police]. The fourth requirement: the sentences tied to the [police] and their participation in the mother meaning. The fifth requirement: building the restriction by [the] conditional

condition of the structure of enriching the signification. Sixth requirement: the force of casting between the constraint and the restriction. The seventh requirement: The arrival of two sentences tied to [the] policeman, the work differed in them and the penalty is one. The Eighth Requirement: Constructing a copy of the restriction by [the] policeman on the summary. The ninth requirement: the expression of the problems in the restriction. The tenth requirement: Linking between the constraint and the restricted according to the place. The eleventh requirement: the richness of the image of the registration in the graphic. The Twelfth Requirement: Addressing the plural in the form of individuals, a departure contrary to what is apparent. The Thirteenth Requirement: Restriction of what is bound to the [condition] of the conditional, and then the conclusion and the most important results, then the indexes.

المقدمـــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وبعد:

فإن لسانًا صدع بالمعجزة الكلامية، التي تنزَّل بها الروح الأمين، لسانٌ شفَّه البيان، وصقله القرآن، فبيانه . صلى الله عليه وسلم . قبس من أنوار الوحي "إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى"[١]، لقد تدفقت بلاغة البيان النبوي تَنْهَلُّ مدرارة من مزن الكلام المعجز، وتتحدّر من وارف أدواحه، لذا كان لها من الخَصوصيات البلاغية ما جعلها ذروة سنام البيان الإنساني، والإفصاح البشري.

ومما لا شك فيه أن السبيل إلى إدراك المعاني الشريفة، التي تلاطمت بين مَرْفأي النفس المحمدية المعصومة، هي تلك الصور التعبيرية، التي تنقل للمتلقين أسرار النفس النبوية الشريفة، وما يستكن في لفائفها الفينانة من معانٍ وخواطر وأسرار.

ومن الظواهر البلاغية في بيان النبوة الخالد، القيد بـ[من] الشرطية، فـ[من] الشرطية تربط بين القيد [الشرط] والمقيد [الجزاء]، وتؤلف بينهما في نسق تركيبي متماسك البناء، يأخذ بعضه بعِناق بعض، إنها تربط المعاني وتشد وثاقها، حتى إذا ما فاضت بها نفس النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . أتت كالكل المجتمع، فوقعت في نفوس المتلقين من أمة البلاغ دفقة واحدة، فآتت غايتها، وحققت بُغيتها، وأدركت هدفها إمتاعًا وإقناعًا وتأثيرًا؛

---

[١] سورة النجم، الآية رقم:[٣].

لأن النفس الإنسانية المتلقية يحركها الثواب والعقاب، وهذا متحقق في القيد بـ[من] الشرطية، ولذلك الأسلوب مقامات وسياقات تطلبه، وله معان لا يكتسيها سواه. وأسلوب القيد بـ[من] الشرطية، يلائم حرصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على دعوة الناس جميعًا فرادى وجماعات ذكرانًا وإناثًا صغارًا وكبارًا، وهذا ما يتحقق بالقيد بـ[مَن] الشرطية.

كما أن في القيد بـ[من] الشرطية تشويقًا للنفس الإنسانية، وإثارة لها، وتمهيدًا لمساربها؛ وتعبيدًا لدروبها؛ لتلقي الجواب، الذي ما إن يساق إليها، حتى يسري في مطاويها، ويستقر في أنحائها، وهذا ـ بلا شك ـ أدعى للاستجابة والتأثُّر.

هذا، وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع أمور، منها:

ـ أن دراسةً انتهت إلى أن [من] الشرطية، هي أكثر أدوات الشرط استعمالًا في البيان النبوي[1]؛ فدفعني ذلك للبحث عن الأسرار والمذاقات والدلالات التي تكمن وراء ذلك.

ـ جِدَّة الموضوع، فليست هناك دراسة عالجت هذا الموضوع من قبل ـ فيما أعلم ـ.

ـ محاولة الإسهام في الكشف عن الأسرار والنكات والمرادات النبوية، المُستكنَّة وراء أكمة بيان النبوة الوراف الظلال بذروة سنام البلاغة البشرية.

أما عن الدراسات السابقة: فلم أقف على أي دراسة بلاغية تناولت هذا الموضوع.

ـ وتكمن مشكلة البحث في: أن أحاديث نبوية عبر فيها النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مراداته في صور تعبيرية مقيدة بـ[من] الشرطية، وذلك في سياقات مختلفة، فكانت الحاجة ماسةً لدراسة بلاغية تحليلية تتعمق تلك الأحاديث، ركضًا وراء الأسرار والمذاقات والدلالات البلاغية والخَصوصيات التعبيرية، التي اعتبرها النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع ما يؤدي به أصل المراد؛ لإنهاء معانيه الشريفة، والتي تعمر بها نفسه الأثيثة بأنوار الوحي، لأخلاد أمة البلاغ؛ وتهدف الدراسة الإجابة على أسئلة البحث، والتي أهمها:

ما السر البلاغي وراء غلبة القيد بـ[من] الشرطية على غيرها من أدوات الشرط؟ وما الخَصوصيات البلاغية التي اعتبرها البيان النبوي في بناء القيد بـ[من] الشرطية؟ وما سمات البنى التي شكلت صورة القيد بـ[من] الشرطية؟ ومتى كان البيان النبوي يعطف صورة مقيدة بـ[من] الشرطية على مثلها؟ وكيف مضت حركات المعنى في الصور المقيدة بـ[من] الشرطية صعودًا وهبوطًا؟

كما تهدف الدراسة إلى: الوقوف على الأسرار والنكات التي اعتبرها النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صوره المقيدة بـ[من] الشرطية.

هذا، وقد جاءت دراستي هذه تحت عنوان:[الخصائص البلاغية للقيد بـ[من] الشرطية في

---

[1] هي دراسة بعنوان: بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين، د/ عودة خليل أبوعودة، ط الأولى، دار البشير. الأردن، ١٩٩١م.

الصحيحين].وقد اقتصرت حدود الدراسة على أحاديث الصحيحين، إذ اختارت نماذج منها تمثل الظاهرة البلاغية محل الدراسة.

واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في مقدمة، وتمهيد، وعدة مطالب، وخاتمة، وفهارس، وبيان ذلك كما يلي:

مقدمة، وتضم: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، وأهدافه، وكيفية تقسيمه، والمنهج المتبع في دراسته. ثم التمهيد وعنوانه: تحرير المصطلحات، وبلاغة القيد بـ[من] الشرطية، وفيه أولًا : تحرير المصطلحات. ثانيًا: بلاغة القيد بـ[من] الشرطية.

ثم مطالب البحث، والتي أتت على النحو التالي: المطلب الأول: تصعيد المعاني في صورة القيد بـ[من] الشرطية. المطلب الثاني: تقديم الجزاء على العمل في صورة القيد بـ[من] الشرطية. المطلب الثالث: تقديم العمل على الجزاء في صورة القيد بـ[من] الشرطية. المطلب الرابع: وصل الجمل المقيدة بـ[من] الشرطية واشتراكها في المعنى الأم. المطلب الخامس: بناء القيد بـ[من] الشرطية من بنىً موحية إثراءً للدلالة. المطلب السادس: قوة السبك بين القيد والمقيَّد. المطلب السابع: وصل جملتين مقيدتين بـ[من] الشرطية اختلف العمل فيهما والجزاء واحد. المطلب الثامن: بناء صورة القيد بـ[من] الشرطية على الإيجاز. المطلب التاسع: التعبير بالمشاكلة في المقيَّد. المطلب العاشر: الربط بالفاء بين القيد والمقيد مراعاةً للمقام. المطلب الحادي عشر: ثراء صورة القيد بالصورة البيانية. المطلب الثاني عشر: مخاطبة الجمع بصيغة الإفراد، خروجًا على خلاف مقتضى الظاهر. المطلب الثالث عشر: تقييد ما قُيِّد بـ[من] الشرطية، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج.

أما عن المنهج، فقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

هذا، وأسأل الله . تعالى . أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في الميزان يوم تنصب الموازين، وأن يرزقني التوفيق والسداد والرشاد...

التمهيد:

تحرير المصطلحات، وبلاغة القيد بـ[من] الشرطية

أولًا : تحرير المصطلحات.

ـ حقيقة القيد:

"القَيْدُ: واحدُ القُيودِ، وقَيَّدْتُ الدابّةَ، وقَيَّدْتُ الكتابَ: شَكَلْتُهُ. وهؤلاء أجمالٌ مَقاييدُ، أي: مُقَيَّداتٌ. ويقال للفرس الجواد: قَيْدُ الأوابِدِ؛ لأنه يمنع الوحشَ من الفَوات؛ لسرعته... والقياد: حبل تقاد به الدابة"(١).

فأصل استعمال لفظة: [القيد] في المحسوسات، ثم توسعوا في استعمالها، فاستعملت في المعنويات، من تقييد المعاني وغيرها.

ويؤتى بالقيد؛ لتربية الفائدة، أي: تكثيرها وتنميتها؛ لأن ازدياد التقييد يوجب ازدياد الخُصوص، وهو يوجب ازدياد البعد الموجِب لقوة الفائدة(٢)، ولذلك أثره في إنهاء المعاني إلى القلوب والعقول.

ـ حقيقة الشرط:

جاء في مادة:[شرط] ما يدل على معنى القيد، يقول الجوهري: "الشَريطُ: حبلٌ يُفتَل من الخوص"(٣).

و"الشَّرط: تعليق شيء بشيء، بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني... وقيل: الشرط: ما يتوقف ثبوت الحكم عليه"(٤).

يقول الخطيب عن تقييد الفعل: "وأما تقييده بالشرط: فلاعتبارات لا تُعْرَف إلا بمعرفة ما بين أدواته من التفصيل، وقد بُيِّن ذلك في علم النحو"(٥).

ثانيًا: بلاغة القيد بـ[من] الشرطية.

تحدث البلاغيون عن تقييد الفعل في جواب الشرط بالشرط، فذكروا: أن تقييد الفعل بالشرط يكون لاعتبارات وحالات تقتضي تقييده به، لا تُعرَف إلا بمعرفة ما بين أدوات الشرط من فروق وسمات، تحصل ببيان ما بين تلك الأدوات من الفروق المعنوية، فـ[إنْ] و [إذا] للشرط في الاستقبال، لكن مع الجزم في [إذا]، والشك في [إنْ]، و[لو] للشرط في الماضي، و[مهما ومتى] لعموم الزمان، و[أين] لعموم المكان، و[مَن] لعموم من يعقل، و[ما] لعموم غير العاقل، فيُعتبر في كل مقام ما يناسبه من معاني تلك الأدوات، مراعاة لحال المخاطب

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، الجوهري ، تح/ أحمد عبد الغفور عطار، جـ٢، صـ٥٢٩، دار العلم للملايين . بيروت، ط الرابعة، ١٤٠٧هـ.

(٢) ينظر: كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، صـ١٥١وما بعدها، المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة، ٢٠١٣م، وشروح التلخيص، جـ٢، صـ٣٢وما بعدها ، ط دار إحياء الكتب العربية . القاهرة، بدون تاريخ، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الشيخ/ عبدالمتعال الصعيدي، جـ١، صـ ١٦٧، مكتبة الآداب ـ القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، جـ٣، صـ ١١٣٦.

(٤) كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، صـ١٢٥، دار الكتب العلمية . بيروت، ط ١، ١٩٨٣م.

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تح/ محمد عبد المنعم خفاجي، جـ٢، صـ ١١٦، ط دار الجيل . بيروت ، ط٣، بدون تاريخ .

والمتكلم و السياقات المختلفة. هذا، ولقد اهتم البلاغيون بأدوات الشرط: [إنْ . إذا . لو] فتناولوا جانبًا من أسرار القيد بها، وغضوا الطرف عن غيرها من الأدوات[١] ،فالقيد بـ[مَن] الشرطية لم ينل من الدراسة ما يستحق. والناظر في حديث البلاغيين عن القيد بالشرط، يدرك أنهم قد تركوا أمر التفصيل في أدوات الشرط لعلم النحو، ودرجوا على ذكر ثلاث أدوات منها فحسب، هي: إذا ، وإنْ ، ولو، والواجب على البلاغيين أن يخوضوا فيها كلها، وأن يمدوا لها أيديهم[٢].

ـ غلبة القيد بـ[مَن] الشرطية في الحديث الشريف:

إن القيد بـ[من] الشرطية في الحديث الشريف، يمثل الغلبة على أدوات الشرط الأخرى، فأدوات الشرط ترتب من حيث كثرة استعمالها في البيان النبوي كما يلي: [مَن . إذا . إنْ . لو . أمّا . لولا . ما . أي . أينما . حيثما][٣]. ولا شك أن غلبة استعمال القيد بـ[مَن] الشرطية على غيرها من أدوات الشرط له أبعاد دلالية، ووراءه أسرار ومذاقات، تدرك بعد لَأْي البحث والدرس، وهذا ما ستحاوله هذه الدراسة.

ـ خصائص أداة الشرط [مَن]:

إن أدوات الشرط وإن اشتركت جميعها في معنى الشرطية، إلا أن لكل من تلك الأدوات خصائص مميِّزة، وسمات محددة، مما يجعل لكل من تلك الأدوات مقامات وسياقات تستدعيها. وعن سمات [مَن] الشرطية يقول النحاة:

مَن تقع للمُجازاة، وتختصّ بذواتِ من يعقل، ولفظُها واحدٌ مذكرٌ، ومعناها معنى الجنس لإبهامها، وهي تقع على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث، فإذا وقعتْ على شيء من ذلك ورددتَ إليها الضميرَ العائد من صلتها، أو خبرِها على لفظها نفسِها، كان مفردًا مذكّرًا؛ لأنه ظاهرُ اللفظ، سواء أردتَ واحدًا مذكرًا، أو مؤنثًا، أو اثنين، أو جماعةً، وإن أعدتَ الضمير إليها على معناها، فهو على ما يقصِده المتكلمُ من المعنى. ومَن تحتاج – أحيانًا– إلى الفاء الرابطة بينها وبين جواب الشرط، حيث يدل هذا الارتباط على اتصال بين الجملتين، وأن الثانية منهما نتيجة للأولى[٤].

---

(١) ينظر: كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، صـ١٥٢. وشروح التلخيص، جـ٢، صـ٣٥وما بعدها .

(٢) ينظر: من بلاغة النظم العربي . دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ عبدالعزيز عبد المعطي عرفة ، جـ١، صـ ٢٤٣، ط٢، عالم الكتب . بيروت،١٩٨٤م.

(٣) ينظر: بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين، صـ٥١٠، صـ٥٥٦.

(٤) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، صـ١٢٧، الناشر/ محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٨هـ. وشرح المفصل، ابن يعيش، قدم له الدكتور/ إميل بديع يعقوب، جـ٢، صـ٤١٢، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٢٢ هـ . والنحو الوافي، د/ عباس حسن، جـ١، صـ ٥٣٥، ط دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة، بدون تاريخ.

ـ سر العدول عن الاستقبال الى المضي في فعل الشرط بـ[من] :

يُعدل عن الاستقبال الى المضي في فعل الشرط بـ[من] الشرطية لأسرار ونكات يقتضيها المقام والسياقات المختلفة، فالخروج على خلاف مقتضى الظاهر في صيغة الفعل يكون بابًا للمعنى للمراد، يقول ابن جنى: " قولهم: إن قمتَ قمتُ، فيجيء بلفظ الماضي، والمعنى معنى المضارع؛ وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتى كأن هذا قد وقع واستقر، لا أنه متوقع مترقَّب"(١).

ـ بلاغة أسلوب القيد بـ[من] الشرطية:

[من] الشرطية تربط بين جملتين، وتؤلف بينهما في نسق تركيبي يأخذ بعضه بعناق بعض، إنها تربط المعاني، وتشد وثاقها، حتى إذا ما فاضت بها قريحة المتكلم، أتت كالكل المجتمع، فوقعت في النفس دفقة واحدة، فآتت أثرها، وحققت هدفها، إمتاعًا وإقناعًا وتأثيرًا.

ولذلك الأسلوب مقامات وسياقات تطلبه، وله معانٍ لا يكتسيها سواه، يقول الإمام عبدالقاهر: "واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ في توخِّي المعاني التي عرفتَ: أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِهِ هناك، نَعم، وفي حالِ ما يُبْصر مكانَ ثالثٍ ورابعٍ يَضعُهما بَعْدَ الأَوَّلَيْن. وليس لِما شأْنهُ أن يجيءَ على هذا الوصفِ حَدٌّ يَحْصرُه، وقانونٌ يُحيطُ به، فإنه يجيءُ على وجوهٍ شتَّى، وأنحاء مختلفةٍ"(٢).

وأصل الأسلوب الشرطي جملتان ألَّفت بينهما أداة الشرط، وأزالت ما بينهما من حواجز، فـ"الشرط والجزاء جملتان، ولكنا نقول: إنّ حكمَهما حكمُ جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنًى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفردِ في امتناع أن تحصل به الفائدة، فلو قلت: إن تأتني، وسكتَّ، لم تُفِدْ، كما لا تفيد إذا قلت: زيد، وسكتَّ، فلم تذكر اسمًا آخر ولا فعلًا، ولا كان منويًّا في النفس معلومًا من دليل الحال"(٣). والربط بين طرفي الأسلوب الشرطي يحمل معنى السببية، فالشرط سبب لحصول الجزاء، ومقدمة له فـ"الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطًا ملاحَظًا فيه ترتُّب المسبب على السبب، فإذا ذكرتَ أداة الشرط وأردفتَ بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون،

---

(١) الخصائص، ابن جني، جـ٣، صـ ١٠٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، بدون تاريخ.

(٢) دلائل الإعجاز، الإمام/عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، صـ٩٣، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة . القاهرة، ط الثالثة، ١٩٩٢م.

(٣) أسرار البلاغة، الإمام/ عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، صـ١١١، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، بدون تاريخ.

فإذا ذكِر الجواب بعد هذه الإثارة، وهذا التشويق تمكن أيما تمكن"[١].

الخصائص البلاغية للقيد بـ[مَن] الشرطية في بيان النبوة

للقيد بـ[من] الشرطية خصائص بلاغية، اعتبرها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . في بنية القيد بـ[من] الشرطية، فوق ما يؤدي به أصل المراد. و"الكلام الذي تتوفر فيه الخصائص المشيرة إلى ألوان المعاني هو الكلام الجيد الممتاز، وترتفع منزلته وتنخفض تبعًا لهذه الحالة، فكلما كان الكلام بخصائص تراكيبه أكثر شمولًا، واستيعابًا للفكر والشعور كان أعلى، وواضح أن كثرة الخصوصيات التي هي من عوامل ارتفاع شأن الكلام، والحكم عليه بالجودة هي الخَصوصيات التي وراءها رصيد من الأفكار والمعاني"[٢].

وسيأتي الحديث عن تلك الخصائص من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول

تصعيد المعاني في صورة القيد بـ[من] الشرطية

من سمات صورة القيد بـ[من] الشرطية تصعيد المعاني، إذ يبدأ بيان النبوة رحلة المعنى في تصاعد وارتقاء، وفي كل مرتقىً من تلك المرتقيات يتصاعد بنيان المعنى، حتى يتم بناؤه كما قصده النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، ومع كل مرتقى من مرتقيات المعنى يزاد شوق المتلقي ركضًا وراء المعنى، ففي حركة المعنى تلك ترقب وتطلع من المتلقي نحو النهاية، وفي ذلك من البلاغة والخِلابة ما لا يخفى، فكلما زاد الشوق وطال التتبع من المتلقي لرحلة المعنى استقر المعنى في الذهن، وأثَّر في النفس، وأتى كالريِّ بعد الظمأ، والغيث بعد طول جدب، وفي ذلك الأسلوب ما يؤكد فقه النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . بأسرار النفوس وطبائعها.

ومن الأحاديث التي تعكس هذه الخَصوصية في صورة القيد بـ[من] الشرطية ما روي عن أبي هريرة . رضي الله عنه . قال:قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: "مَنْ آتاهُ اللَّهُ مالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ – ثُمَّ يَقُولُ: أَنا مالُكَ،

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/عبد العظيم المطعني، جـ١، صـ٢٠٨، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٢م.

(٢) خصائص التراكيب ـ دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبوموسى، صـ٧٣ـ٧٤، مكتبة وهبة . القاهرة ، ط السابعة، بدون تاريخ .

أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ: (لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ[١] الآيَةَ"[٢].

في الحديث الشريف ترهيب من كنز المال، وإهمال حقوق المحتاجين، وقد صاغ النبي . صلى الله عليه وسلم . فكرته في بناء تركيبي، جاء على صورة مقيدة بـ[من] الشرطية، يكسوها تصعيد المعنى في الطرفين، ولكنه أتى في المقيد أبرز؛ ليلائم المقام بتحقيق الترهيب من كنز الزكوات.

تأمل صورة القيد: [مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ]، ترى لفظة: [آتاه] وما في دلالة الفعل:[آتى] من معنى العطاء بسهولة ويسر، يقول الراغب: "الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المارّ على وجهه: أَتِيّ وأَتَاوِيّ..."[٣]، وقد أتى الفعل في الماضي لإفادة تحقق الوقوع، وفي مجيء فعل الشرط من تلك المادة اللغوية وبنائه على تلك الهيئة، ما يعكس سَعة العطاء الرباني، فعطاء الله للعبد بلا حساب، إذ إنه يُسر وتدفُّق؛ فهو الكريم، وإسناد الإيتاء لله . تعالى . مزيد تصعيد للمعنى؛ لأن إيتاءه ليس كإيتاء غيره . سبحانه وتعالى . وفي تنكير لفظة:[مالًا] تصعيد جديد يرتقي بالدلالة لما فيها من معنى التعظيم، والسياق اللغوي للحديث يؤكد ذلك.

ثم يقول:[فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ] تصعيد للمعنى بالفاء التي تعكس حقيقة نفس الكانز الشحيحة ومسارعتها في المنع، ثم تأمل التعبير بـ[لم يُؤَدِّ] وما فيها من معنى الحق الواجب دفعه، يقول الراغب: "الأداء: دفع الحق"[٤]ودخول النفي:[لم] على الفعل: [يُؤَدِّ] تصعيد للمعنى يعكس شره الكانز فالله . تعالى . آتاه مالًا بلا سبب، كرمًا غير واجب ـ فالله تعالى لا يجب عليه شيء ـ وهو يسارع في منع الحق الواجب.

إلى هذا الحد من التصعيد الذي تصاعدت معه أنفس المتلقين شوقًا للنهاية، تقف حركة المعنى في جانب القيد، لتبدأ رحلة المعنى في جانب المقيد، وذلك قوله . صلى الله عليه وسلم . : [مُثِّلَ لَهُ مالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ – ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ: (لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) الآيَةَ].

المتأمل في صورة المقيد يراه بني على تصعيد المعنى، مما يغرس الهلع والفزع في قلوب المتلقين، فالنبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . أطلعه ربه على صورة ما سيكون يوم القيامة من عذاب أليم للكانزين ـ إذ إنه سبحانه لا يُطلع على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول، فالنبي . صلى الله عليه وسلم . استهل صورة المقيَّد بالشجاع، وهو كما يقول ابن سيده:

---

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية رقم: [١٨٠].

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، الإمام/ محمد بن إسماعيل البخاري، تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د/ مصطفى ديب البغا، جـ٢، صـ١٠٦، دار طوق النجاة ، مصورة عن السلطانية، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح/ صفوان عدنان الداودي، صـ٦٠، ط دار القلم . دمشق، الدار الشامية . بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

(٤) السابق، صـ ٦٩.

"من أعْرَم الحَيَّات، طويلٌ، أقرَعُ، مُرَقَّش الظّهْر بسواد وصُفْرة، بِلهزِمتيه عَلْطان أسْوَدانِ، والجمع: الشُّجْعَان"(١) وأتى . صلى الله عليه وسلم . بلفظة: [شجاعًا] منونة للتهويل والتعظيم من شأنه، وتصويرًا لما هو عليه من مشهد مخيف، ومجيء لفظة: [شجاعًا] منكَّرةً في ابتداء صورة المقيَّد ناسب مقام الترهيب، الذي يُرهب فيه النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . من كنز المال إهمالًا لحقوق المحتاجين وأصحاب الأعذار. ويمضي البيان النبوي مُصعدًا المعنى بوصف الشجاع بـ[الأقرع] وهو" الذى يتمعط شعر رأسه، زعموا؛ لجمعه السمَّ فيه، يقال: شجاعٌ أقْرَعُ"(٢)وفي ذلك من التصعيد ما يخلع القلب، ويهز النفس، التي تسرح بالخاطر في مطاوي هذا المشهد المخيف، الذي يدعو كل كانز للمال حرمانًا للمحتاجين للتأمل والتدبر؛ عساه أن يعود إلى سبيل الرشاد من جديد. ويمضي بيان النبوة في رحلة المعنى حيث يزداد التصعيد، ويوغل المعنى في العمق والحركة في مراقي التصعيد، بقوله . صلى الله عليه وسلم . : [له زبيبتان] فـ" الزَّبِيبَتان نُقْطَتَان سَوْدَاوَان فَوْقَ عَيْنَيِ الحَيَّة...وَهُوَ أَوحَشُ مَا يكون من الحَيَّاتِ وأَخْبَثُه"(٣).

إن هذه الصورة البصرية التي أدنتنا من المشهد، وقربتنا من الحدث، وكأننا هناك نرى بأم أعيننا ذلكم الشجاع المهيوب المخيف، بصورته البشعة التي تلقي بالفزع في النفوس، فتنتزعها من الأجساد. ثم تأمل تصاعد المعنى الذي يركض وراءه الإدراك، إذ يقول . صلى الله عليه وسلم . :[يطوَّقه يوم القيامة]، أي: الشجاع صاحب الهيئة المعروضة آنفًا يلتف حول عنق الكانز، فـ"كل شيء استدار فهو طَوْقٌ"(٤) فتأمل تصاعد المعنى بتطويق الشجاع صاحب الهيئة السابقة عنق الكانز.

إن الصورة تزداد فظاعة، والمشهد تتلبد غيومه، والفزع يتصاعد لدى المتلقي، ولكنه فزع يخالطه شوق وتلهف لنهاية رحلة المعنى، التي تحمل من الدلالات والمذاقات عجائب الغيب التي فُتحت للنبي . صلى الله عليه وسلم . .

إننا أمام صورة غيبية حقيقية، عمادها "التقييد بالواقع ونقل ما هو موجود حقيقة وجودًا ماديًا حسيًا يصفه ويفسره وينظر إلى تقاسيمه وأجزائه"(٥)، والتعبير بالمضارع في قوله: [يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ] أسهم في رسم المشهد البصري، فهو مناسب لتلك السياقات بقدرته على نقل تفاصيل الحدث تحت بصر وحس المتلقي، ورغم أن التخيُّل يقع في صيغتي الفعلين المستقبل والماضي، لكنه في

(١) المخصص، ابن سيده، تح/ خليل إبراهم جفال، جـ ٢، صـ ٣١١، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، جـ٣، صـ ١٢٦٢.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، تح/ مجموعة من المحققين، جـ٣، صـ٦،ط دار الهداية، بدون تاريخ.

(٤) كتاب العين، الخليل بن أحمد، تح. د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، جـ٥، صـ١٩٣، دار ومكتبة الهلال، بدون تاريخ .

(٥) البلاغة والتحليل الأدبي، د/ أحمد أبو حاقة، صـ٢٩٧، ط دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

أحدهما ـ وهو المستقبل ـ أوكد وأشد تخيلًا؛ لأنه يستحضر صورة الفعل، حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلًا قد مضى من غير استحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه، وهذا لا خلاف فيه(١).

وفي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [ثم يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ –] مزيد تصعيد للمعنى، وقد أتى ملائمًا للمقام، وما فيه من مشهد متصاعد، أثيث بالأحداث الفواتك. وإيثار النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لـ[ثم] التي تفيد الترتيب والتراخي، يؤكد طول وقت التطويق، فليس تطويق الشجاع الأقرع مرًا خفيفًا هكذا، إنما هو تطويق مُحْكَم، يستمر وقتًا طويلًا؛ حتى يتحقق العدل الإلهي بجزاءٍ من جنس العمل، ألم يكن العمل إيلامًا للسائل والمحروم، وكنزًا للحق المعلوم؟! ألا فلتتحقق عدالة رب لا يظلم أحدًا!! ولينطلق الشجاع الأقرع بهيئته المخيفة؛ ليطوق الكانز مرة بعد مرة، وكرة بعد أخرى جزاءً وفاقا!!

وفي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [ثم يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ–] ذَكَرَ الفعل والأداة المستخدمة في حدوثه، وطوى المفعول به الذي يمكن أن يقدر بـ[جسده] ، وعلى الرغم من أن الفعل متعدٍ يتوق للمفعول به، ولكن البيان النبوي آثر الطي؛ ليُشيع الأخذ والالتهام في جسد الكانز، فالشجاع والكانز في مواجهة في ساحة العذاب وأرض العقاب، ليس بينهما حجاب ولا باب، فللشجاع الأقرع ما شاء من جسد الكانز، الذي طالما أوجع أجساد المحتاجين، فتضوعوا جوعًا وعطشًا ومرضًا، وطالما آذى نفوسهم بإعراضه عنهم، وعبوسه في وجوههم؛ كي لا يفتح باب ود بينه وبينهم يسوّغ لهم سؤله، كما أن الكانز حجب أموال الزكوات بهواه، ألا فلينطلق الشجاع الأقرع كما أراد، فجسد الكانز حِلٌ له بلا قيد!! إن طي المفعول أسهم في تصوير معنى الترهيب؛ طلبًا لإقلاع كل كانز عن غيه.

فضلًا عن أن الطي تصعيد للمعنى وارتقاء به، حيث وسع دائرة التأويل للمطوي، فأكسب المعنى بُعدًا دلاليًا جديدًا، وأطلق عِنان الخيال ركضًا وراء إدراك المطوي، فالطي أبلغ من الذكر إذا اقتضاه المقام، و"هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذِكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تُبن"(٢).

هذا، وفي قول الشجاع الأقرع:[أنا مالك، أنا كَنْزُك] تصعيد جديد للمعنى، يعكس حركة المعنى المتصاعدة، ونبرة التعبير المحتدة، واشتداد المشهد، إنه تصعيد بالقول بعد التصعيد بالفعل؛ ليذوق الكانز وبال أمره.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح / أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، جـ٢، صـ١٤٧، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) دلائل الإعجاز، صـ ١٤٦.

إنهما خبران خرجا عن الفائدة ولازمها، إلى معنى التهكم؛ إيلامًا وتبكيتًا للكانز جزاءً وفاقًا، فالجزاء من جنس العمل، فكما أن الكانز آلم المحتاجين وأرباب الأعذار، بحجب حقوقهم عنهم في الدنيا، جزاؤه أن يعذب نفسيًا، مع كونه يعذب جسديًا، فحجبه لحقوقهم عنهم ترتب عليه إيذاؤهم معنويًا بكسر نفوسهم، وتحطيم معنوياتهم، وجسديًا بتجويع بطونهم وتعرية أجسامهم.

وفي تلاوته . صلى الله عليه وسلم . للآية: ﴿لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ[1] مزيد تصعيد وتوكيد وإقناع وتأثير في نفوس المتلقين، فالاقتباس[2] من القرآن الكريم أمد النص النبوي الشريف برافد من المعنى، قوَّى الخبر الذي يسوقه النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . فخبر السماء تدفقت دلالاته في لوحة النص النبوي، فوصل التصعيد غايته، وبلغ نهايته، وكان هذا خير مختتم للصورة النبوية المقيدة بـ[من] الشرطية.

المطلب الثاني

تقديم الجزاء على العمل في صورة القيد بـ[من] الشرطية

يقدم الجزاء على العمل في صورة القيد بـ[من] الشرطية إذا اقتضى المقام ذلك؛ تعجيلًا للمسرة، وإثارة لاهتمام المخاطب، وترغيبًا له في فعل الخير، من ذلك ما روي عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ . رضي الله عنه . قال: سمعت رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يَقُولُ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ"[3].

يقول النبي . صلى الله عليه وسلم . : من أسعده أن يزيد الله له في رزقه بالبركة أو الكثرة، أو أن يؤخر له في عمره بالبركة أو الكثرة، فليصل رحمه.

هذا الحديث اكتسى معناه، وهو الحث على صلة الرحم أسلوبَ الشرط، الذي أداته [من]، وهذا الأسلوب ملائم لمقام الحديث وهو الترغيب؛ إذ القيد ببنائه التركيبي فيه من وسائل الإقناع ما يؤثر في المخاطب، ويحثه على الاستجابة للمقيَّد؛ تطلعًا لما في القيد من الثواب.

وقد قُدم الجزاء على العمل في بنية القيد بـ[من] الشرطية، تأمل القيد [الشرط]:[مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ] تراه يضم بين لفائفه ما يعبر عن المعنى المراد في صورة لفظية تعانقت لبناتها في سبك محكم، وتركيب متماسك، يؤثر في النفس الإنسانية، ويسري في مطاويها فـ"ليس الشأن في إيراد المعاني... وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه،

---

(1) سورة آل عمران، جزء من الآية رقم: [١٨٠].

(2) الاقتباس: "هو أن يُضمَّنَ الكلام شيئًا من القرآن والحديث لا على أنه منه" بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، جـ٤، صـ ٦٨٨.

(3) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٣، صـ٥٦.

وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب"[١].

تأمل استهلاله . صلى الله عليه وسلم . بالشرط: [مَن سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ] فالاستهلال بالشرط فيه تشويق للسامع، وإثارة لرغباته في معرفة المقيَّد [جواب الشرط]، وذلك قوله: [فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ] فإذا ما ساقه النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . أتى على نفس السامع، وقد استبد بها الشوق حتى بلغ منتهاه، فيؤثر فيها، ويسري في مطاويها، كالماء السلسبيل بعد الظمأ الطويل. وهكذا يهيئ النبي . صلى الله عليه وسلم . نفوس المتلقين، ويُعدها إعدادًا جيدًا؛ حتى يؤتيَ خطابه ثماره المنشودة، وغايته المعقودة فـ"الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح"[٢].

هذا، وفعل الشرط: [سَرَّ] أتى ملائمًا للسياق مطابقًا للمقام، فلا يسد غيره مسدَّه، ولا يقوم مقامه؛ لأن الخَصوصية الدلالية للفعل: [سَرَّ] ليست لغيره، فمثلًا: [الفرح] قريب الدلالة من [السرور] إلا أنه لا يعطي صورة المعنى المراد؛ فـ" السرور لا يكون إلا بما هو نفع أو لذة على الحقيقة، وقد يكون الفرح بما ليس بنفع ولا لذة، كفرح الصبِي بالرقص والعدو والسباحة وغير ذلك، مما يُتعبه ويُؤذيه، ولا يسمى ذلك سُرُورًا؛ أَلا ترى أنك تقول: الصبيان يفرحون بالسباحة والرقص، ولا تقول: يُسَرُّون بذلك"[٣] .

وعليه فمعنى قوله . صلى الله عليه وسلم . : [من سره] أي: من نفعه أو لذَّه أن يُبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره، ولا شك أن البسط في الرزق أو النسء في الأثر فيهما نفع أو لذة. فضلًا عن أن لفظة: [سرَّ] ذات جرس مستميلٍ للنفس؛ فحروفها سهلة النطق، لا تكبد آلة النطق مشقة؛ فالسين حرف مهموس، والهمس: جريان النفس أثناء النطق بالحرف، كما أنه حرف رَخو[٤]، والرَّخاوة: ضعف الاعتماد على المخرج، مع جريان الصوت مع الحرف. وصوت حرف السين المتماسك النقي يوحي بإحساس لمسيٍّ بين النعومة والملاسة، وبإحساس بصري من الانزلاق والامتداد، وبإحساس سمعي هو أقرب للصفير، كما أن حرف السين يوحي بالحركة والطلب والبسط[٥].

---

(١) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صـ٥٧ . ٥٨ ، المكتبة العصرية . بيروت، ١٤١٩هـ.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، جـ١، صـ٢١٧، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١ م.

(٣) معجم الفروق اللغوية، أبوهلال العسكري، تح. الشيخ/ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، صـ٢٧٧، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقُم، ط،١٤١٢هـ .

(٤) يقال: رخو، بفتح الراء وكسرها؛ تقول اللغة: "الراء والخاء والحرف المعتل أصل يدل على لينٍ وسخافة عَقل، من ذلك شيء رِخوٌ بكسر الرَّاء. قال الخليل: رَخوٌ أيضًا، لغتان" معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تح/عبد السلام محمد هارون ، جـ٢ ، صـ٥٠١، دار الفكر، ١٩٧٩م.

(٥) ينظر: مخارج الحروف وصفاتها، ابن الطّحان، تح. د/ محمود يعقوب تركستاني، صـ٨٥ وما بعدها، ط بيروت، ١٩٨٤م. وخصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن

إن الراحة والدَّعة في جرس السين أشبهتا المعنى المراد من [سرَّ] وهو: المنفعة أو اللذة . كما ذكر أبو هلال العسكري . كما أشبهتا البُشرى التي ساقها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . بالبسط في الرزق، والنسء في الأجل لواصل الرحم، كما أشبهتا ما تفعله صلة الأرحام في نفوس ذوي القرابة عند صلتهم وبرهم من ارتياح ومسرَّة.

أما الراء فهي حرف متكرر، والتكرار: تضعيف في جسم الراء، وهو صفة خاصة بالراء، وهي حرف مجهور، والجهر: قوة الاعتماد حتى منع النفس من أن يجري، كما أنه حرف انحرافي، والانحراف: خروج من صفة إلى صفة، كما أنها حرف بين الشدة والرَّخاوة، فصوت حرف الراء أشبه ما يكون بالمفاصل من الجسد لما فيه من رشاقة وحركيَّة[1] فالراء تحكي بجرسها معنى [سرَّ] وهو المنفعة أو اللذة، فدلالة الفعل: [سرَّ] تحمل معنى تغيُّر حال فاعل القيد [الشرط] في رشاقة وحركيَّة للأفضل حيث المنفعة واللذة، وذلك أمر يتكرر للإنسان كلما وصل رحمه، والجهر بما فيه من منع النفَس عند النطق بصوت الراء، يحكي مجاهدة النفس بالبذل للفوز بالمنفعة أو اللذة، أما الانحراف فيحكي الانتقال من حال ما قبل السرور، وقبل صلة الرحم إلى ما بعد السرور وصلة الرحم، وما فيه من منفعة أو لذة، وتغيير في حال واصل الرحم والموصولين من ذوي الأرحام.

إن لفظة: [سرَّه] بدلالتها المعجمية وقيمتها الصوتية تلهب مشاعر المتلقين، وتبث في نفوسهم التفاؤل والأمل، فالسرور غاية الإنسان، به تكتسي الحياة أردية القبول والدعة. ولذلك كان من مقتضيات الأحوال أن يقدم النبي . صلى الله عليه وسلم . الأجر على العمل، وأن يستهل حديثه بتلك اللفظة التي تتحدر من أَكَمتها شآبيب الدلالات والإشارات مدرارة في قناة النص.

ثم إن النبي . صلى الله عليه وسلم . آثر قالب الفعل الماضي:[سرَّ] دون المضارع [يسر] وذلك؛ لتشويق المتلقين بتأكيد وقوع القيد عن طريق صيغة الماضي، ودفعهم لفعل المقيَّد [جواب الشرط]، ألا وهو صلة الرحم، فـ"الفائدة في الفعل الماضي إذا أُخبر به عن المستقبل الذى لم يوجد أنه أبلغ، وأعظم موقعًا؛ لتنزيله منزلة الواقع"[2]، كما أن في إيثار صيغة المضي ما يعكس حال المتكلم . صلى الله عليه وسلم . الحريص على أمته، الذي يتطلع إلى أن يدخل السرور على قلوب أمة البلاغ، فكان التعبير بالماضي مرآة لما في نفس النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . من معنىً.

هذا، وقد بُنى الفعلان: [يُبسط . يُنسأ] لما لم يسم فاعله للعلم بالفاعل، فبسط الرزق ونسء الأثر ليسا إلا لله . تعالى . فمن رحمته بعباده أن

عباس، صـ١١٠وما بعدها، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق، ١٩٩٨م.

(١) ينظر: مخارج الحروف وصفاتها، صـ٨٥. وخصائص الحروف العربية ومعانيها، صـ ٨٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٣، صـ٣٣٧، دار المعرفة . بيروت، بدون تاريخ.

جعل أرزاقهم وآجالهم بيده وحده، فالتصريح بالفاعل مع العلم به . لاختصاصه وحده بالفعل . إخلال بمقتضى البلاغة، كما أن في عدم تسمية الفاعل للعلم به تذكيرًا للمخاطبين بأن الله . تعالى . هو وحده الفاعل لهذين الفعلين، إذ لا يمكن أن يُسندا لسواه . سبحانه . وفي ذلك ما لا يخفى من غرس الثقة، وتعميق الإيمان في قلوب المخاطبين.

ثم تأمل إضافة لفظة:[رزق] إلى الضمير [الهاء] العائد على [من]، وإضافة لفظة:[أثر] إلى الضمير [الهاء] العائد على [من] كذلك، ترى في تلك الإضافة ما يوحي بامتلاك المخاطَب للرزق والأجل، فرزقه وأجله لن يكونان إلا له، فهما ملك له، والمِلك لا يُنازع فيه صاحبه. وفي اختياره . صلى الله عليه وسلم . لمادتي: [بسط] و [نسأ] ما يرغب المتلقين في فعل المقيَّد [جواب الشرط] [فليصل رحمه]؛ فالأولى: تدل على امتداد الشيء، يقول ابن فارس: "الباء والسين والطاء أصل واحد، وهو امتداد الشيء، في عِرَضٍ أو غير عِرَض، فالبساط ما يُبسط، والبساط الأرض، وهي البسيطة، يقال: مكان بسيط وبساط ... ويد فلان بسط: إذا كان مِنفاقًا، والبسطة في كل شيء السَّعة"(١). والثانية: تدل على التأخير والإبقاء "يُقَال: نسأ الله في أَجله، وأَنسأ الله أجلك، أَي: أخَّره وأبقاه"(٢). ولا شك أن البسط في الرزق، والتأخير في الأجل، أمران تهفو إليهما النفس وتتطلع؛ فالبقاء والتملُّك أمران غرزيان متغلغلان في طبيعة النفس الإنسانية. هذا، و"قيل: معنى البسط في رزقه ... البركة؛ لأن صلته أقاربه صدقة، والصدقة تُربى المال وتزيد فيه، فينمو بها ويزكو"(٣).

ثم تأمل تعبيره . صلى الله عليه وسلم . بصيغة المضارع [يُبسط . يُنسأ]. تر التعبير بصيغة المضارع يجعلك تستحضر صورة الحدث، وتتمثله كما لو كان يجري تحت وسائل إدراكك، فكأن الرزق صار شيئًا محسوسًا يُبسط على الأرض المترامية الأطراف الممتدة النواحي. وكأن الأجل هو الآخر يؤخَّر، فيطول أمده أمام مداركنا، كل ذلك في مشهد حركي حسي تلوح صورته في الأفق، وما ذلك إلا من أثر صورة المضارع التي أسهمت في بناء القيد، بالدلالة والبنية والنسق التركيبي.

وقد بنى الحديث الشريف على الإيجاز الذي أثمره أسلوب الشرط، وللإيجاز مزية تعبيرية يقول الجاحظ: " وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه"(٤).

و[أو] في قوله: [يُبسط ...أو يُنسأ] للعطف، فهي بمعنى الواو، فمن معاني [أو] العطف

---

(١) معجم مقاييس اللغة، جـ١ ، صـ٢٤٧.

(٢) تاج العروس، جـ١ ، صـ٤٥٥.

(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تح/ ياسر بن إبراهيم، جـ ٦ ، صـ ٢٠٦،مكتبة الرشد . السعودية، ط٢، ٢٠٠٣م.

(٤) البيان والتبيين، الجاحظ، تح. الشيخ/ عبد السلام هارون، جـ١، صـ٩٧، المطبعة التجارية الكبرى . القاهرة، ط١، ١٩٢٦م.

يقول الثعالبي:"[أو] تأتي بمعنى واو العطف "[١] وذكر المالَقي أن: [أو] حرف عطف تعطِف مفردًا على مفرد، وجملة على جملة، ويكون لها مع العطف معان أخرى، منها: أن تفيد الإباحة، والإباحة تعني: أن للمخاطب أن يجمع بين الشيئين[٢]. والذي يلوح هنا: أن ربط البيان النبوي بين: [يُبسط] و[يُنسأ] بـ[أو] يعطى معنى إباحة اختيار إحدى العطيتين الربانيتين البسط في الرزق أو النسء في الأجل، مع إمكان الجمع بين العطيتين المذكورتين في القيد [الشرط] البسط والنسء، وبذلك يأتي القيد مرغِّبًا في فعل المقيَّد [جواب الشرط] ، فالإباحة في العطاء غاية الكرم، وليس هناك أكرم من الله . تعالى . مع عباده، فنعمة واحدة منه سبحانه لا تُحصى، وبذلك نرى [أو] التي ربطت بين الفعلين أبلغ من الواو؛ ففيها من الخَصوصيات الدلالية التي اعتبرها النبي . صلى الله عليه وسلم . ما ليس في الواو.

ثم تأمل قوله . صلى الله عليه وسلم . : [فليصل رحمه] ترها موصولة بالفاء بقوله: [مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ] فالبناء واحد، والسبك متداخل، والنظم متماسك، وقد أتت الفاء؛ لتزيد طرفي الشرط ترابطًا وتداخلًا.

وهكذا نرى الجزاء يقدم على العمل إذا اقتضى المقام ذلك وطلبه.

المطلب الثالث
تقديم العمل على الجزاء في صورة القيد بـ[من] الشرطية

قد يقدم العمل على الجزاء إذا كان بيان العمل أهم، من ذلك ما روي عن أبي هريرة . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[٣].

في هذا البيان النبوي الشريف، إخبار من النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . بجزاء من كذب عليه متعمدًا، يقول: [من كذب عليَّ متعمدًا] "يعني: من لم يبلِّغ حق التبليغ، ولم يحتط في الأداء، ولم يراع صحة الإسناد، وحدَّث عني بلا حرج، دخل في زمرة الكاذبين"[٤].

وقد عبر . صلى الله عليه وسلم . عن معنى الترهيب من الكذب عليه بأسلوب الشرط الذي أداته [من]، كما أتت صورة القيد تحمل من الترهيب من الكذب ما يخلع القلب، ويذيب النفس أسىً من هول مصير من كذب على النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ؛ لأنه . صلى الله عليه وسلم . مصدر من مصادر التشريع للأمة؛ لذا كان الكذب عليه . صلى الله

---

[١] فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، تح/ عبد الرزاق المهدي، صـ ٢٤٨، إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٢م.

[٢] رصف المباني في شرح حروف المعاني، المالَقي، تح/ أحمد محمد الخرّاط، صـ١٣١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، بدون تاريخ.

[٣] المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، الإمام/ مسلم بن الحجاج، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، جـ١، صـ١٠، دار إحياء التراث العربي . بيروت، بدون تاريخ.

[٤] شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ[الكاشف عن حقائق السنن]، تح. د/عبد الحميد هنداوي، جـ٢ ، صـ٦٥٩، مكتبة نزار . الرياض، ط١، ١٩٩٧م.

عليه وسلم . ادعاءً في دين الله . تعالى . وتقوُّل على الله ورسوله . صلى الله عليه وسلم . .

هذا، والمتأمل في القيد المعبِّر عن العمل، يستوقفه نظمه، الذي أثمر كمال الدلالة على المعنى النبوي الشريف، وما ينطوي عليه من بلاغة تجمع بين التأثير والإقناع والإمتاع، فقد ساق البيان النبوي المعنى المراد في إيجاز ناسب المقام، فالمقام مقام ترهيب من فعل جرم كبير، وهو الكذب على النبي . صلى الله عليه وسلم . ، فناسبه أن يأتي القيد وهو الشرط: [من كذب على متعمدًا] مقترنًا بالمقيَّد وهو الجواب: [فليتبوأ مَقعده من النار] في بناء تركيبي واحد؛ ليصل القيد والمقيد معًا إلى مسارب النفس كالكل المجتمع، في إيجاز جمع المعنى في بنية تركيبية واحدة متماسكة موجزة. وهذا من سمات كلامه الشريف فـ"كلامه . صلى الله عليه وسلم . ...هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله . تبارك وتعالى . : قل يا محمد: "وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ"[١] فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر"[٢].

هذا، وقد أتى القيد بـ[من] الشرطية ملائمًا طبيعة النفس الإنسانية، تلك التي يُعبِّدها أسلوب التشويق، ويمهد مساربها، ويُعدها بإتقان وأناة لقبول الخبر، ويزيد من تعطشها إليه، وذلك عن طريق الشرط في قوله . صلى الله عليه وسلم . : [من كذب عليَّ متعمدًا]، حيث إن الشرط جعل السامع يَعرُج بخياله محلِّقًا هنا وهناك توقُّعًا وطلبًا للجواب، فإذا ما أتى المقيَّد بعد محاولة طلبه كان كالرِّيِّ بعد الظمأ، إذ الشيء كلما طال انتظاره، كان أشدَّ تأثيرًا في النفس، وإقناعًا للعقل، وإمتاعًا للوجدان.

وفي قوله . صلى الله عليه وسلم . :[من كذب] آثر بيان النبوة التعبير بالماضي على التعبير بالمضارع، خروجًا على خلاف مقتضى الظاهر، حيث اعتبر النبي . صلى الله عليه وسلم . خَصوصية التعبير بالماضي . وإن كان أصل المراد يُؤدَّى بالمضارع لدلالته على الحال والاستقبال؛ وذلك حتى يتأكد المعنى، فمن الناس من سيكذب بالفعل على النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، ويعد هذا من إخباره . صلى الله عليه وسلم . بالغيب.

ولفظة: [كذب] هي اللفظة المحورية في الحديث، فهي حبة عقد نظم الحديث الشريف، تُلقي بظلالها على النص، وتسري في أطوائه.

هذا، وتقييد فعل الشرط بالحال [متعمدًا] تأكيد على رحمته . صلى الله عليه وسلم . بأمته، ومراعاته . صلى الله عليه وسلم . لطبيعة النفس البشرية، التي قد تفعل الشيء على سبيل السهو أو الخطأ، فيؤكد . صلى الله عليه وسلم . على أن ذلك مما يُرفع عن كاهل الإنسان، فلا يحاسب المرء على السهو والخطأ.

---

[١] سورة ص، جزء من الآية:[٨٦].

[٢] البيان والتبيين، جـ٢، صـ١٣.

والشرط في الحديث الذي بين أيدينا مجازي[١]؛ فمن كذب على النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . لن يتبوأ مقعده من النار بنفسه؛ لأن هناك ملائكة للعذاب لا يعصون الله ما أمرهم، وفي قوله . صلى الله عليه وسلم . : [فليتبوأ] أسلوب إنشائي، طريقه الأمر، ومعناه الخبر، وقد اقتضاه مقام الترهيب، ومن قناته تنهل الدلالات فـ"الأمر بالتبوء تهكم وتغليظ؛ إذ لو قيل: كان مَقعده في النار، لم يكن كذلك، وأيضًا فيه إشارة إلى معنى القصد في الذنب وجزائه، أي: كما أنه قصد في الكذب التعمّد، فليقصد في جزائه التبوء"[٢].والفاء في قوله: [فليتبوأ] جوابية تصدرت المقيَّد [الجواب]، والفاء الجوابية معناها الربط، وتلازمها السببية، والترتيب أيضًا[٣]، وكل تلك المعاني مرادة هنا، فهي توافق مقام الترهيب، وتؤدي المعنى المراد.

ولفظة:[فليتبوأ] في قوله: [فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ] رسمت صورة تخلع القلب، وتذيب النفس، للكذاب على رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فذلك الكاذب في ردهات النيران . والعياذ بالله تعالى . يبحث عن مَقعده ليتبوأه ويستوي عليه...إنه مشهد عارم بالويلات، مفعم بالآلام... لقد استطاع البيان الشريف أن يرسم صورة مكتملة الخلق، واضحة القسمات، معبرة عن جزاء أليم ينتظر من يكذب على النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، فمعنى تَبَوَّأَ: نَزلَ وأَقامَ، والاسم من تبوّأ: البيئة[٤]ففي معنى البنية ما يلائم المقام؛ فالإقامة في النار فيها من الزجر ما لا يخفى. وفي التعبير بالمضارع استحضار لعظم الموقف، فمن الألفاظ ما يرسم لوحة دقيقة القسمات لفكرة ما، وذلك" بظله الذي يلقيه في الخيال، وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة، يلحظها الحس البصير، حينما يوجه إليها انتباهه، وحينما يستدعي في خياله صورة مدلولها الحسية"[٥].

وفي إضافة [مَقعد] للضمير الهاء، ما يؤكد معنى الترهيب، فالمَقعد صار مخصوصًا بمن كذب على النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، فهما مقترنان، وفي إضافة المقعد للهاء العائدة على من كذب على رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ما يخلع القلب، ويدعو لتحري الدقة فيما ينسب للنبي . صلى الله عليه وسلم . من حديث.

ولا شك أن تقديم العمل على الجزاء ناسب مقام الترهيب من فعل الكذب على النبي . صلى الله عليه وسلم . .

---

(١) الشرط إما حقيقي وإما مجازي، يقول ابن فارس: "الشرط على ضربين: شرطٌ واجبٌ إعماله كقول القائل: "إن خرج زيدٌ خرجتُ"... والشرط الآخر: مذكور إلا أنه غيرُ مَعْزوم عليه ولا محتوم، مثل قوله: "فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ" فقوله: [إِن ظَنَّا] شرط لإطلاق المراجعة. فلو كان محتومًا مفروضًا لما جاز لهما أن يتراجعا إلاّ بعد الظنّ أن يقيما حدود الله، فالشرط ها هنا كالمَجاز غير المعزوم... فقد يكون بعض الشروط مَجازًا". الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص٢٠٠.

(٢) شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ[الكاشف عن حقائق السنن]، جـ٢ ، صـ ٦٥٩.

(٣) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تح . د/ فخر الدين قباوة ، أ / محمد نديم فاضل ، صـ٦٦، ط دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الأولى، ١٤١٣هـ .

(٤) ينظر: تاج العروس، جـ١، صـ ١٥٥.

(٥) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، أ/ سيد قطب، صـ٤٨، دار الشروق ،ط الثامنة، ٢٠٠٣م.

المطلب الرابع

وصل الجمل المقيدة بـ[من] الشرطية

واشتراكها في المعنى الأم

الجمل المقيدة بـ[من] الشرطية التي تشترك في المعنى الأم أتت موصولة، متماسكة البناء، قد اقترنت معانيها، وأخذ كل منها بعناق بعض، من ذلك، ما روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . :

"مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"(١).

يدور المعنى الأم لهذا الحديث حول أن الجزاء من جنس العمل. وللمعنى الأم معانٍ فرعية أتت مرتبطة بالمعنى الأم، معانقة له، بينها وبينه من جهات التناسب، ما جعل الحديث الشريف متماسك النظم، محكم البناء، قد اقترنت معانيه، ووصلت جمله، حتى صار في نظمه كالكل المجتمع.

لقد بنى النبي . صلى الله عليه وسلم . حديثه الشريف على جمل موصولات بالواو، وذلك للتوسط بين الكمالين كمال الاتصال وكمال الانقطاع؛ لاتفاقها في الخبرية لفظًا ومعنى، ووجود المناسبة المسوِّغة للعطف بين تلك الجمل المقيَّدات بالشرط، ومن الجوامع بين تلك الجمل:

الشرطية وإن اختلفت صورها، والحث على فعل الخير في كل، وحرص النبي . صلى الله عليه وسلم . على أمته، والذي يعكسه كل من تلك الأساليب، كما أن المخاطبين المقصودين هم أمة النبي . صلى الله عليه وسلم . ، كل تلك الصلات حسَّنت الوصل بين تلك الجمل بالواو. وفي وصل تلك الجمل بالواو ما يعكس حرص النبي . صلى الله عليه وسلم . على أمته؛ إذ يدعوهم إلى الخير بصوره المختلفة، ليفعل كل منهم الخير ما استطاع إليه سبيلا.

وفي الحديث الذي بين أيدينا أتى القيد بالشرط في سبع جمل، هي:. [مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]، [وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]، [وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]، [وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ]، [وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ]، [وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ]، [وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ].

(١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، جـ ٤، صـ٢٠٧٤.

الجمل السبع السابقة، قُيِّدت خمس منها بـ[مَن] الشرطية، بينما قيدت اثنتين بـ[ما] الشرطية[١]، فبنيت هذه الجمل السبع على القيد بالشرط.

وقد أتت الجمل الثلاث الأول مذيلة[٢] بالجملة الرابعة: [وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ] فهي جملة مستقلة أتت بعد تمام الكلام؛ للتوكيد والتقرير إقناعًا بمضمون الأخبار السابقة، التي تحمل معانيَ قد تبدو مستغرَبة؛ لما فيها من سَعة العطاء الرباني والفضل الإلهي، فتنفيس الله . تعالى . وتيسيره وستره للعبد جزاء التنفيس والتيسير والستر من العبد لأخيه فضلٌ كبير تسبح فيه الخواطر، فلا تقف له على مَرفأ؛ لذا ناسبه التوكيد والتقرير للإقناع، وهذا ما حققه التذييل.

وتأمل تقديم النبي . صلى الله عليه وسلم . للخير المتعلق بقضاء حوائج الناس من تنفيس وتيسير وستر ومعونة على طلب العلم وتلاوة كتاب الله ومدارسته، مما يؤكد على رسالة الإسلام وجوهره، إذ يُعنَى بالترغيب في قضاء حوائج الناس، فالإنسان بناية الله المكرَّمة.

وقد أتت تلك الجمل متآخية في معانيها؛ فكل منها يدل على لون من ألوان الخير، فبينها جهة من التناسب، أقامت رحمًا بين تلك الجمل. والمتأمل في نظم الحديث الشريف، يرى أن مطلعه وهو قوله :[من نفَّس] يرتبط بمقصد الحديث، فشآبيب المطلع تتدفق مدرارة بين ثنايا جمل الحديث وكلماته وحروفه، فترى خيوطًا دلالية للمطلع تتصل بمعنى كل جملة في الحديث.

فتنفيس كربة من كرب الدنيا جزاؤه أن ينفس الله . تعالى . به كربة من كرب يوم القيامة. والتيسير على المعسر تنفيس لعسرته. وستر المسلم تنفيس بستر فضيحته. وكون العبد في عون أخيه تنفيس لشدته. وسلوك طريق العلم تنفيس عن أولئك الذين ينتفعون بهذا العلم، وينعمون بأثره في المجتمع بتنفيس كربهم، فالأصل في طلب العلم أن يُسهم في حل أزمات المجتمع. واجتماع قوم في بيت من بيوت الله . تعالى . تنفيس عنهم بالسكينة التي تتنزل عليهم، والرحمة التي تغشاهم، والملائكة الذين يحفونهم، وبهذا المجلس المبارك قد يفرج الله . تعالى . هموم الناس بدعوات أهل الله من

---

(١) من معاني ما الشرط أو الجزاء نحو: ما تفعل تُجْزَ عليه، ومنه قوله تعالى: "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا". [جزء من الآية رقم:[٢] سورة فاطر] ينظر: كتاب حروف المعاني، الزجاجي، تح. د/علي توفيق الحمد، صـ٥٣، مؤسسة الرسالة . دار الأمل، بدون تاريخ. ومعاني الحروف، الرماني، تح.الشيخ/عرفان سليم حسونة، صـ٥٩، المكتبة العصرية . بيروت، بدون تاريخ. وكتاب الأُزْهِيَّة في علم الحروف، الهَرَوي، تح/عبدالمعين الملّوحي، صـ٧٥، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق،١٩٩٣م.

(٢)"التذييل ... تفعيل من قولهم ذَيّل كلامه: إذا عقَّبه بكلام بعد كمال غرضه منه، فأما معناه في اصطلاح علماء البلاغة: فهو عبارة عن الإتيان بجملة مستقلة بعد إتمام الكلام؛ لإفادة التوكيد، وتقرير لحقيقة الكلام، وذلك التحقيق قد يكون لمنطوق الكلام، وتارة يكون لمفهومه" الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، جـ٣، صـ٦١، دار الكتب العلمية . بيروت ، بدون تاريخ .

القانتين والساجدين والتالين للذكر الحكيم، ولا يخفى ما في المساجد وحلق الذكر من متع روحية، لا يدرك لذائذها إلا من ذاقها ، فمن ذاق عرف .كما يقولون . . وفي الجملة الشرطية الأخيرة [من بطأ...] تنفيس عن أولئك الذين ربما ظنوا أن أنسابهم مانعتُهم من العقاب، فتنبهوا لحقيقة الأمر بالنص عليهم في الحديث، فكان ذلك سببًا في عملهم وجدهم، فكان تنفيسًا عنهم، في يوم شديد الأهوال.

فخَصوصية المطلع التي اعتبرها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . في حديثه الشريف تبرز ملمحًا من ملامح بلاغته العالية.

هذا، وقد استهل النبي . صلى الله عليه وسلم . حديثه بالحث على أعمال صالحة يعود خيرها على الآخرين، وذلك من خلال القيد بالشرط :[من نفس...]، [من يسر...]، [من ستر ...]، [...ما كان العبد في عون...]، ثم ترقى إلى الحث على أعمال صالحة يعود خيرها على فاعلها [من بطأ...] مما يؤكد اهتمام الرسالة المحمدية بالإيثار، والسعي في سبيل إسعاد الغير، ترسيخًا للأخوة الإنسانية .

ولأهمية الأمور التي يدعو إليها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . نراه يؤثر أسلوب الشرط، الذي يلقى بالقيد والمقيَّد [الشرط والجزاء] مرة واحدة في خَلَد المخاطَب، وفي ذلك ما يدعو المخاطب إلى الاقتناع، وفي هذا ما يلائم سياقات الحديث الشريف والسنة النبوية والرسالة المحمدية، فكل ذلك يؤكد الحرص على استجابة الأمة للدعوة، وما تحمله من مبادئ.

وبالتأمل في نظم الأساليب المقيَّدة بـ[من] الشرطية، تستوقفك بلاغة النبوة بنظمها البديع، وعذوبتها الرائقة، وصدق الله: "قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ"[١]. ففي قوله . صلى الله عليه وسلم . : [مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ].

نرى [من] الشرطية تدل على الجنس؛ إذ هي مبهمة، تفيد العموم، فيدخل فيها الناس كلهم، وتُحدَّد دلالتها بما يعود عليها من ضمير فعل الشرط، فإن أُعيد الضمير إليها، فهو على ما يقصِده المتكلمُ من المعنى[٢]، وأفعال الشرط [نفَّس . يسر . ستر] فاعلها ضمير مستتر تقديره [هو] يعود على كل من يصل إليه هدى النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، وإيثاره . صلى الله عليه وسلم . لصيغة الإفراد في الضمائر المستترة أبلغ؛ لأن كل سامع يتصور الخطاب له، والحث على الفعل له وحده، فيكون هذا أدعى للاستجابة، وأليق بالبلاغة؛ فالخطاب كلما كان أخص كان أدعى للإنصات والتأمل، بل والاستجابة. كما بَنَى النبي . صلى الله عليه وسلم . الأسلوب الشرطي على التشويق، فـ[من] تشوّق المتلقي لجملة الشرط، وجملة الشرط تشوّق لجوابه، حتى إذا ما بدأ المتلقي سماع الأسلوب الشرطي من بدايته ملكته حالة تشوق

---

(١) سورة الصافات، الآية:[٨٦].

(٢) ينظر: شرح المفصل، جـ٢، صـ٤١٥.

وتشوف لمتابعة الخبر حتى النهاية، فيظل يقظ الذهن، متقد الفكر، حتى ثمالة البناء التركيبي للشرط.

ثم تأمل إيثاره . صلى الله عليه وسلم . لمادة: [نفَّس] في الجملة الأولى، يقول: "[مَنْ نَفَّسَ]: بالتشديد أي: فَرَّج، قال الطِّيبِيُّ: كأنه فتح مداخل الأنفاس، فهو مأخوذ من قولهم: أنت في نفَس، أي: سَعة، كأن من كان في كربة سُدَّ عنه مداخل الأنفاس، فإذا فُرِّج عنه فتحت بمعنى من أزال وأذهب"[1] حتى ولو شيئًا بسيطًا يخفف وطأة الكربة التي تعتري النفس بالهموم والأحزان، ففي ذلك دعوة نبوية للأمة جمعاء للإسهام في تخفيف كرب إخوانهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وطالع قالَب الماضي الذي خرج به التعبير على خلاف مقتضى الظاهر[نفَّس]، فالفعل لم يقع بعد، ولكن النبي . صلى الله عليه وسلم . عبر بالماضي حثًا للمخاطَب على الفعل؛ ترغيبًا له وتفاؤلًا باستجابته للدعوة النبوية، مما يعكس حرص النبي . صلى الله عليه وسلم . على نجاة أمته .

ثم عايش لفظة: [مؤمن] المنكَّرة المنونة التي شاعت في جنس المؤمنين بلا تفرقة بين قريب وبعيد، كبير وصغير، عربي وأعجمي ... فالإيمان وشيجة تربط بين مجتمع المؤمنين، وآصرة توثق عرى العلاقة بينهم. كما أتت لفظة: [كربة] منونة تدل على العموم، فتشمل كل أنواع الكرب صغيرة أو كبيرة.

هذا، وقال . صلى الله عليه وسلم . : [كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ، ولم يقل: من كرب الدنيا والآخرة، كما قيل في التيسير والستر، لأن الكُرَب هي الشدائد العظيمة، وليس كل أحد يحصل له ذلك في الدنيا، بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر، فإن أحدًا لا يكاد يخلو في الدنيا من ذلك، ولو بتعسر الحاجات المُهِمَّة. وقيل: لأن كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة كلا شيء، فادخر الله جزاء تنفيس الكرب عنده، لِيُنَفِّسَ به كرب الآخرة[2].

والطباق بين: [الدنيا] في جانب القيد، و[يوم القيامة] في جانب المقيَّد، يعكس سعة عطاء الله . تعالى . لعباده، فتنفيس كربة الآخرة لا يقارن بتنفيس كربة الدنيا، ولكن الله . سبحانه . يعطي على قدره، فعِظم العطاء دليل عظمة المعطِي، كما أن في الطباق ما يحفز المتلقين لتنفيس كرب الدنيا، عساهم أن يفوزوا بتنفيس كرب يوم القيامة.

ثم يتابع . صلى الله عليه وسلم . أساليبه المقيدة بـ[من] الشرطية فيقول:[ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة]. فنراه . صلى الله عليه وسلم . يحث على التيسير

---

(1) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي، جـ١، صـ٢٨٦، ط دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

(2) ينظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، تح.د/ محمد الأحمدي أبو النور، جـ٢، صـ ٢٨٧، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤ م.

والستر، معبرًا بالتقييد بالشرط بـ[من] ليفتح نافذة الأمل أمام شداة فعل الخير فـ[من] بدلالتها على عموم الناس تستوعب كل مخاطب، فعمل الخير الذي يدعو إليه النبي . صلى الله عليه وسلم . ليس حكرًا على أحد.

هذا، وقد عبر بصيغة المُضِي في فعلي القيدين [يسر ـ ستر] حثًا للمخاطَب على الفعل وتفاؤلًا باستجابته للترغيب. هذا، والتنكير في [معسرٍ . مسلمًا] أفاد العموم والشمول مما أغنى عن ذكر أفراد كلٍ، وفي ذلك من الإيجاز ما لا يخفى.

وقد أتت جملة التذييل مبنية على الشرط بـ[ما]: [والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه] بتقديم المقيَّد: [والله في عون العبد] على القيد: [ما كان العبد في عون أخيه] تعجيلًا للمسرة، وترغيبًا في فعل القيد للفوز بالمقيَّد.

ثم يقول . صلى الله عليه وسلم . : [ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة] ببناء الأسلوب على الشرط بـ[من] ليفتح باب دعوة الناس إلى طلب العلم على مصراعيه، وذلك بتلك الصورة التي رسمها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، ونظمها في تركيب بديع، فرائده اختارها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . واعتبر فيها مع ما يؤدي أصل المراد خَصوصية زائدة، ففي القيد تأمل فعل الشرط:[سلك] وما يوحي به من معنى إنفاذ شيء في شيء، لذا آثره النبي . صلى الله عليه وسلم . على ما يدانيه في الدلالة كـ[مشى وسار ومضى وغير ذلك]؛ وذلك لما لـ[سلك] من خصيصة دلالية تلائم المقام، يقول ابن فارس: "السِّينُ وَاللَّامُ وَالْكَافُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى نُفُوذِ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ، يُقَالُ: سَلَكْتُ الطَّرِيقَ أَسْلُكُهُ، وَسَلَكْتُ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ: أَنْفَذْتُهُ"(١). وفي ذلك ما يؤكد تقييد جواب الشرط:[سهل الله له به طريقًا إلى الجنة] بتحلي طالب العلم بالهمة العالية، وأخذه سبيل الطلب بقوة، ينفذ معها نحو آماله في إدراك لذائذ التوصل إلى نتائج جديدة، متجاوزًا صعوبات البحث، ومعاناة شظف التحصيل، مما يجعله مستحِقًّا للمقيَّد [الجزاء]: [سهل الله...] تلك الدلالات أثمرها لفظ [سلك] بما فيه من إشارة، فـ"من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى: الإشارة، وهو: أن يكون اللفظ القليل مشتملًا على معانٍ كثيرة بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها، كما قال بعضهم، وقد وصف البلاغة، فقال: هي لمحة دالة"(٢)، فاللفظة التي آثرها بيان النبوة ترسم صورة للمقصود في القيد[الشرط] عند التماس العلم.

فضلًا عن أن التعبير بصيغة الماضي:[سلك] فيه حثٌ للمخاطَب على الفعل، وتفاؤلًا باستجابته للترغيب والحث على الفعل. وتأمل حركة المعنى في القيد ترى قوله:[طريقًا . علمًا] بالتنوين الذي ألقى رداء من الجلال والعظمة على طريق العلم، وعلى العلم ذاته.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، جـ٣، صـ ٩٧.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تح. د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، صـ١٥٤، ١٥٥، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٩٧٨م.

فـ"التنكيرُ قد يجيء لفائدة جَزْلَةٍ يقصُر عن إفادتها العلَم، ولا يبلغ كنهَها رَسْمُ القلم"[1].

هذا، وقد دلت اللفظتان: [طريقًا . علمًا] على العموم والشيوع، فأي علم يطلبه المتعلم بأي طريق يأتي بالأجر الذي صوره المقيَّد جواب الشرط وذلك ما دام العلم نافعًا، مما يؤكد أن الأجر ليس لعلم دون آخر، وإنما الأجر على الإتقان في الطلب، والتفاني في التحصيل؛ أملًا في نتائج نافعة تسهم في إسعاد الناس، وتيسير أمورهم. ثم ارجع التأمل في لفظة: [طريقًا]، التي كساها التنوين هالة تعظيم وجلال، فطريق العلم، أي علم له جلال يتأتى من عظمة غاياته في نشر نور المعرفة، ومحو ظلمات الجهل، وما يترتب عليه من تخلف وتقهقر.

وتأمل لفظة: [يلتمس] تراها ذات مذاق دلالي يلائم السياق ويوافق المقام، يقول الزَّبيدي: "لَمَسَهُ يَلْمِسُه ويَلْمُسُه، من حَدِّ ضَرَبَ ونَصَرَ: مَسَّه بيَدِه، هَكَذَا وَقَع التَّقْيِيدُ بِهِ لغَيْرَ وَاحِدٍ، وفَسَّره اللَّيْثُ، فقالَ: اللَّمْسُ باليَدِ: أَن يَطْلُبَ شَيْئا هاهُنَا وهاهُنَا...وَقيل: اللَّمْسُ: الجَسُّ"[2]. فدلالة اللمس تدور حول ثلاثة معانٍ: الأول: المس باليد، والثاني: طلب الشيء في مظانه المختلفة هاهنا وهاهنا، والثالث: الجسُّ.

والمس باليد يعني: الجد وبذل الجهد في الطلب؛ إذ اليد تستعمل فيما يحتاج لجهد ونصب، كما يعني المس: فحص مسائل العلم بدقة وحكمة، وطلب الشيء هاهنا وهاهنا يعني: البحث الدائب مع الصبر الأناة وعدم التعجل في الوقوف على النتائج، والتنقيب المدقق في مظان العلم المختلفة؛ طلبًا للحقيقة دونما يأس أو ملل. والجس: فيه حيطة في قبول ما جاء في كتب العلم، وعدم التسليم المطلق بكل ما جاء فيها.

وبهذا يتأكد لدينا دقة نظم القيد، ومجيء لبناته معبرة بدقة عن المراد النبوي، فالبيان النبوي أتى بلبنات القيد بحيث لا يسد غيرها مسدَّها، ولا يقوم مقامها، فهي ذات صبغ دلالي ذي خصوصية تلائم المقام.

هذا، والمقيَّد [الجزاء] في قوله . صلى الله عليه وسلم . :[سهل الله له به طريقًا إلى الجنة] مرتهن بالقيد [الشرط]:[ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا].

وفي بناء الفعل: [يلتمس] على صورة المضارع، ما يرسم لوحة لطالب علم يمضي، وقد سلك طريقًا يطلب العلم من مظانه هاهنا فإن لم يجد ضالته مضى هناك وهنالك، حتى يلوذ بالهدف المنشود، والحلم المعقود، فإذا ما وجد بغيته لم يُسلم لها من أول وهلة، وإنما يظل يوازن ويقارن ويمحص ويحقق ويدقق، منطلقًا من أدواته العلمية وطاقاته المعرفية، حتى يخرج بالدرر كالغواص الذي سبر أغوار البحار وتعمق مساربها، كل ذلك رسمه قالَب المضارع بقدرته على رسم الحدث وكأنه يقع تحت سمع وبصر المخاطَب.

ثم أدر خاطرك في بنية: [يلتمس] وما فيها من زيادة مبنى؛ إذ أصل جذرها اللغوي: [لمس]

---

(1) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، جـ٢، صـ١٣ .

(2) تاج العروس، جـ١٦، صـ٤٨٤.

فلحقتها ياء المضارع، وتاء بعد فاء الفعل؛ ليُتوَّج الفعل مزيدًا من الدلالة، إذ في [يلتمس] معنى بذل الجهد في طلب العلم، وبهذا تسهم المفردة ببنائها على هيئة خاصة في دلالة النظم بإثراء معناه، يقول ابن الأثير: "اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولًا؛ لأن الألفاظ أدلةٌ على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبتْ القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه"(١).

ثم تأمل بنية المقيَّد[جواب الشرط] وذلك قوله . صلى الله عليه وسلم . :[سهل الله له به طريقًا إلى الجنة] ترى الجملة أتت مفصولة عن سابقتها؛ لأنهما معًا كالجملة الواحدة، إذ الأولى أثارت سؤالًا راود خواطر المتلقين، وهو ما جزاؤه؟ فكانت البلاغة أن تأتي الثانية مفصولة عن الأولى؛ لأنهما لا تحتاجان إلى رابط؛ لقوة الآصرة الرابطة بينهما، فضلًا عن أن الفصل بينهما جعلهما تقعان في النفس كالكل المجتمع؛ إذ هما شيء واحد، ووقوعهما على تلك الهيئة، يجعلهما مؤثرتان؛ إذ النفس الإنسانية بأصل خلقتها يحركها الترغيب بالمنفعة.

هذا، وقد اختار . صلى الله عليه وسلم . لفظة: [سهَّل] مسندًا لجملة الجزاء، وهي اللفظة المحورية في الجملة؛ فهي تظلل البناء التركيبي للجملة بدلالتها التي تدور حول اللين، يقول الخليل: "السَّهْلُ: كلُّ شيءٍ إلى اللِّين، وذَهابِ الخشونة، وقد سَهُل سُهُولةً، والسَّهْلة: تُرابٌ كالرّملِ يَجيءُ به الماء"(٢).

وفي قوله . صلى الله عليه وسلم . :[وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ] صورة قيد بـ[من] الشرطية، بنيت على إيجاز القِصَر، حيث اشتملت على الكثير من المعاني، "فالقِصَر تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني"(٣) وهو برهان على قدرة العقل على الاختصار، بل هو من دلائل البيان.

كما أُسند الفعلان في القيد والمقيَّد إلى غير ما هما له، لعلاقة السببية، فالعمل والنَّسب ليسا فاعلَين حقيقيين للفعلين:[بَطَّأَ . يُسْرِعْ]، وإنما أُسندا لغير ما هما له؛ للمبالغة في قوة أثر العمل، إذ بسببه ينعَّم العبد أو يعذَّب فلا فضل لأحد على غيره إلا بالعمل الذي يوزن يوم تُنْصَب الموازين.

هذا، وقد أتى الخطاب في الجمل الخمس المقيدة بـ[من] الشرطية بصيغة الإفراد، يقول . صلى الله عليه وسلم . : [مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]، [وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]، [وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]. [وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ]، [وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ]. وذلك خروجًا على خلاف مقتضى الظاهر، إذ الظاهر أن يأتي الخطاب في غير الحديث

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، جـ٢، صـ١٩٧.

(٢) كتاب العين، جـ٤، صـ٧.

(٣) كتاب الصناعتين، صـ ١٧٥.

بصيغة الجمع؛ لأن الخطاب لأمة البلاغ، ولكن النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . اعتبر في بناية الجمل المقيدات بـ[من] الشرطية التعبير بصيغة الإفراد؛ ليتصور كل سامع أن الخطاب له وحده، وهذا . لا شك . أدعى للتأثر والاستجابة، كما يعكس الإفراد فكرة خَصوصية الثواب والعقاب، فكل نفس بما كسبت رهينة، فلا تملك نفس لنفس شيئًا.

هذا، وقد أتت صور القيود في الحديث الشريف موصولة بالواو، تلك التي تربط بين المعاني الجزئية التي تشكل المعنى الأم للحديث. وقد حسَّن الوصل هنا تلك الجوامع المسوِّغة له، كالتناسب في التقييد، وفي كون معانيها تدعو إلى فعل الخير بصورٍ مختلفة، وكون صور القيود آتية في إيجاز قِصَر، فوجوه التناسب تلك مثلت رحمًا أَلَّف بين صور القيود، وجعلتها تتدفق في النفس المتلقية كالشيء الواحد. فضلًا عما يعكسه الوصل من بيان حركة المعنى داخل الحديث، إذ يبدأ المعنى بالترغيب في تنفيس الكرب، وينتهي بالترغيب في الاعتماد على الأعمال الصالحة وحدها، والتي من أجلها تنفيس الكرب.

وهكذا أتت صور القيد بـ[من] الشرطية في مقام الترغيب في نظم محكم، وسبك جيد، اكتست معانيه من التراكيب ما عبر عنها أصدق تعبير.

المطلب الخامس
بناء القيد بـ[من] الشرطية من بنىً موحية[1] إثراءً للدلالة

صورة القيد بـ[من] الشرطية مبنية على الإيجاز، فالقيد والمقيَّد انسبكا معًا في بناء تركيبي يشد بعضه بعضًا، حتى خرج الجزآن كالجملة الواحدة، ولكن مفردات هذا البناء أتت تحمل من الدلالات الدافقة بالمعاني الثَّرة الموحية ما يثري الدلالة، ويجلِّي الفكرة، ويحقق قصد النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . وفي ذلك ما يعكس ما تنطوي عليه بنية صورة القيد بـ[من] الشرطية من ألفاظ ذوات طاقات إيحائية قادرة على نقل مرادات النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، بل تصوير ما هو معتمل في النفس النبوية الزكية من المعاني الشريفة؛ وما ذلك إلا لأن "ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويَصْقُلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هي من دليله، مُحكمَة الفصول، حتى

---

(١) يقصد بالإيحاء: "ما تثيره الكلمة حولها من معانٍ ودلالات، ارتبطت بها في مجال الاستعمال على مر الزمان، حتى صار النطق بالكلمة مثيرًا لهذه المعاني الجانبية في نفس السامع، وإن لم تكن هذه المعاني الجانبية معروفة إلى جانب المعنى الأصلي للكلمة في أصل وضعها، ولا تذكرها لها المعاجم اللغوية، فهذه المعاني تتلازم في أذهان الناس، وإن لم تتلازم في أصل الوضع اللغوي" النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د/ محمد طاهر درويش، صـ٢٥٠، ط دار المعارف . القاهرة، ١٩٧٩م .

ليس فيها عروةٌ مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفصولة"[١].

وفي الإيحاء تحفيز للمتلقي لإدراك المعاني الجانبية التي تثيرها الكلمة أو الجملة الموحية، التي لم تأت صراحة في صورة القيد، فـ" للألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة، يلحظها الحس البصير، حينما يوجه إليها انتباهه، وحينما يستدعي في خياله صورة مدلولها"[٢].

تأمل قوله . صلى الله عليه وسلم . فيما روي عن أَبي شُرَيْحٍ، أن سَهْلَ بن أبي أُمَامَةَ بن سَهْلِ بن حُنَيْفٍ، حدَّثه، عن أبيه، عن جده، أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"[٣].

ترى قوله . صلى الله عليه وسلم . : [من سأل الله الشهادة ـ بصدق . بلغه الله . منازل الشهداء . وإن مات على فراشه] بنىً تثير في أذهان المتلقين معانىَ جانبية، تتدفق مدرارة مع التأمل ومعاودة النظر، فتثري المعنى، وتترك لذهن المتلقي العِنان؛ لإدراك تلك المعاني الجانبية التي أثارتها صور موحية، ذوات طاقات دلالية تتجاوز المعجم نحو آفاق أرحب، تسبح فيها الخيالات ركضًا وراء المعاني، فقوله . صلى الله عليه وسلم . : [من سأل الله الشهادة] يوحي بأن الشهادة منزلة رفيعة، ولا ينالها إلا من اصطفاهم الله لذلك، فهي غاية لا تُنال إلا بالسؤال والإلحاح في الطلب، وفي قوله . صلى الله عليه وسلم . : [بصدق] إيحاء بأن من الناس من يسأل الله الشهادة رياءً وسمعة، وهو غير جاد في سؤله، وإنما سأل؛ ليقول الناس عنه: إنه محب للشهادة، مستعد للقاء الله، فاللفظة الموحية أدت المعنى المراد، فرغبت في الصدق عند سؤال الشهادة، وألمحت إلى صِنف من الناس يلوكون بألسنتهم ما لا يجاوز حناجرهم، وفي قوله . صلى الله عليه وسلم . : [بلَّغه الله] ما يوحي برفعة منزلة الشهيد، ففي لفظة: [بلَّغه] إيحاء بعلو مقام الشهيد وسموه، وحاجة العبد المؤمن لبُلغة يُتَبَلَّغُ بها تلك المنزلة، من عقيدة راسخة، وطاعة دائمة، وتوفيق إلهي، وسؤال لله . تعالى . يقول ابن فارس: "الباء واللام والغين أصل واحد، وهو: الوصول إلى الشيء، تقول بَلَغْتُ المكان، إذا وَصَلْتَ إليه..."[٤]، ودلالة الفعل:[بلَّغ] تجاوزت المعنى اللغوي، نحو آفاق دلالية أرحب، وما ذلك إلا من أثر صنيع السياق اللغوي في اللفظة، والذي أمدها بالإيحاء، فـ"الكلمة قبل إدراجها في سياق لغوي قائم على اختيار عنصر أو بناء، تظل خاوية من الدلالة البينة الملامح، فهي أشبه بماء لا طعم له، لكنها في سياقها الخاص، وسياقها العام تتحول إلى إشارة تثير في الذهن معانيَ وصورًا عديدة"[٥] وهذا ما رأيناه في لفظة: [بلَّغه]

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، صـ١٩٣، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٨، ٢٠٠٥ م.

(٢) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، صـ ٤٨.

(٣) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، جـ٣، صـ ١٥١٧.

(٤) معجم مقاييس اللغة، جـ١، صـ٣٠١.

(٥) فقه بيان النبوة منهجًا وحركة، د/ محمود توفيق سعد، صـ١١، مطبعة الأمانة، ط١٩٩٢،١م.

بعد أن وضعها البيان النبوي في صورة القيد بـ[من] الشرطية.

وفي قوله . صلى الله عليه وسلم . :[منازل الشهداء] ما يوحي بكثرة تلك المنازل، فالشهداء ليسوا جميعًا في منزلة واحدة، كما أن الإضافة توحي بأن لهم منازل خاصة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم، فلهم عند ربهم . سبحانه وتعالى . شأن خاص مما جعل لهم منازل مقصورة عليهم.

وفي قوله . صلى الله عليه وسلم . : [وإن مات على فراشه] احتراس[1]، طلبه المعنى فاكتساه اللفظ، وبدونه يوهم الكلام خلاف المراد، حيث يوهم أن المعنى المراد: من سأل الله الشهادة في سبيله بصدق بلغه الله منازل الشهداء بأن يوفقه للجهاد، حيث ساحة القتال التي يستشهد فيها، فتتحقق ضراعته، وتجاب دعوته، وهذا المعنى ليس مقصودًا، إنما المقصود: من سأل الله الشهادة في سبيله بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه، جزاء نيته الحسنة، فمن همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له. لذلك كانت البلاغة في أن يحترس البيان النبوي بـ [وإن مات على فراشه] حتى لا يوهم الكلام خلاف المقصود.

هذا، ولما كان النبي . صلى الله عليه وسلم . مبلِّغًا وداعيًا، كان الإيجاز أبلغ لأداء دعوته لأمة البلاغ؛ مخافة الملل والسآمة، كما كان الإيحاء بابًا مُعينًا على جوامع الكلم، فـ"إن للألفاظ أرواحًا، ووظيفة التعبير الجيد أن يُطلق هذه الأرواح في جوها الملائم لطبيعتها، فتستطيع الإيحاء الكامل والتعبير المثير"[2].وكلما أرجعت البصر إلى تلك الأساليب الموحية يرجع إليك البصر بدلالة جديدة تثري المعنى وتزيده، بما تحمل من لطائف وأسرار ومذاقات.

وهكذا تعانق الإيحاء مع النكات البلاغية، التي تفيض بها صورة القيد بـ[من] الشرطية، مما أثمر صورة تعبيرية مقنعة مؤثرة في المتلقين، رغَّبت في الإخلاص في طلب الشهادة؛ تطلعًا للأجر من الله . تعالى . .

كذلك من الأحاديث تعكس بناء البيان النبوي القيد بـ[من] الشرطية من بنىً موحية إثراءً للدلالة: ما روي أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال: "مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ"[3].

تستوقفنا في صورة القيد لفظة: [بحديثٍ] فقد أتت منكَّرة، تثير في ذهن المتلقي أن المنسوب إلى النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . كذبًا مهما كان قليلًا فهو مؤذٍ لا محالة للوعيد المنصوص عليه في الحديث؛ ففي التنكير ما يؤدي المعنى المراد، كما أن فيه إيجازًا أغنى عن كثير من الألفاظ، وفيه إشعار بعظم جرم الكذب على رسول الله . صلى الله عليه وسلم . مهما قل، فكذب عليه . صلى الله عليه وسلم . ليس ككذب على غيره، وإن كان الكذب كله

(1) "الاحتراس...هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه" بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، جـ٢، صـ ٣٥٥.

(2) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، صـ٧٣.

(3) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، جـ١، صـ٨.

حرامًا، وهكذا "التنكير... صالح لأن يتولد منه معانٍ كثيرة "[١].

وهكذا رأينا كيف أسهم الإيحاء بوسائله المختلفة في تشكيل بنى صور القيود بـ[من] الشرطية، مما أسهم في إنهاء المعاني النبوية التي اكتستها تلك الصور إلى عقول وقلوب المتلقين.

المطلب السادس

قوة السبك[٢]بين القيد والمقيَّد

الشرط يعانقه الجزاء، فالصورة اللفظية ضَمَّت كليهما في صورة تركيبية جعلتهما كالشيء الواحد، قد انسكبا في بوتقة واحدة فتداخلا بفعل [من] الشرطية، وما لها من طاقة على الربط بين طرفي الشرط، فيصير الطرفان كالسبيكة الواحدة، فينسربا معًا في نفس المتلقي مرة واحدة، فيكون ذلك أدعى للتأثير والإقناع، يقول الإمام عبدالقاهر: "واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ في توخِّي المعاني...أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا"[٣] وفي ذلك ما يحرك النفس المتلقية رغبة ورهبة، ويزيد من تفاعلها مع الفكرة المطروحة.

ومن الأحاديث التي تعكس قوة الارتباط بين طرفي صورة القيد بـ[من] الشرطية ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : "مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُها بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصاحِبِهِ، كَما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ"[٤].

---

(١) خصائص التراكيب . دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، صـ٢١٤.

(٢) ويقول صاحب ابن فارس: "السين والباء والكاف أصل يدل على التناهي في إمعاء الشيء، من ذلك سبكت الفضة وغيرها أسبكها سبكًا " معجم مقاييس اللغة، جـ٣، صـ١٢٩.

(٣) دلائل الإعجاز، صـ ٩٣.

(٤) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٢، صـ ١٠٨.

يقول . صلى الله عليه وسلم .: من تصدق بعَدْل تمرة وزنًا أو قيمة، من كسب حلال، فإن الله . تعالى . يتقبل هذه الصدقة قبولًا حسنًا، ويُجزل العطاء لصاحبها وينميها ويزيد في أجرها، كما يربي أحدكم مهره إذا فُطم، بما في ذلك من العناية و الرعاية، حتى تصير الصدقة مثل الجبل(١).

ففي الحديث الذي بين أيدينا تأكيد على أن الجزاء من جنس العمل، والعمل هنا بيَّنه القيد:[مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ] والجزاء بيَّنه المقيَّد: [وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُها بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ] فـ[من] الشرطية ربطت بين الشرط والجزاء، ووثقت عرى العلاقة بينهما، إنها جعلت الثاني جزاءً للأول في صورة تركيبة محكمة النسج، متماسكة الأجزاء، سرى أثر [من] الشرطية في مطاويها، فـ[من] الشرطية بطاقتها على ربط أجزاء الكلام ربطت الشرط بالجزاء، ووصلت بينهما في بناء تركيبي متماسك صار كالكل المجتمع، فإذا ما سيق الكلام وقع من النفس موقعًا حسنًا؛ إذ يشتد فيه ارتباط الأجزاء فيكون أمتع للنفس وأشد إقناعًا للعقل.

ومما قوى السبك بين طرفي أسلوب الشرط الواو في المقيد[وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُها بِيَمِينِهِ] التي طلبها التركيب، فلما طال القيد كانت البلاغة أن تأتى الواو؛ لتربط بين طرفي أسلوب الشرط.

(١) ينظر: تعليق .د/ مصطفى البغا على الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٩، صـ١٢٦.

المطلب السابع
وصل جملتين مقيدتين بـ[من] الشرطية اختلف العمل فيهما والجزاء واحد

من خصائص القيد بـ[من] الشرطية في بيان النبوة وصل الجملة المقيدة بـ[من] الشرطية بمثلها، مع اختلاف العمل والجزاء واحد، وذلك في المقامات والسياقات التي تقتضي ذلك.

ومن نماذج اعتبار تلك الخصوصية ما روي أَن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قَالَ: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا"(٢).

يقول . صلى الله عليه وسلم . : مَنْ أَعْطَى غازيًا فرسًا وسلاحًا ونفقة، فقد حصل له ثواب الغزو، ومن خَلَفَ غازيًا في أهله، بأن قامَ مَقامَه في خدمة أهل بيته، فقد حصل له ثواب الغَزْو(٣)، فمن أعان مؤمنًا على عمل بر فللمعين أجر مثل العامل(٤).

ومن الخَصوصيات التعبيرية التي اعتبرها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . هنا العطف بالواو بين الجملتين المقيدتين بـ[من] الشرطية. ولا شك أن الوصل تكمن وراءه نكات وأسرار بكشفها تتدفق المعاني والدلالات التي تسفر عن مراد المتكلم "لذلك لم تكن قضية الفصل والوصل، وأمرهما أمر حرف تُرك تارة، ووُجد

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٤، صـ٢٧.

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح، المُظْهِري، تح/ لجنة مختصة من المحققين، بإشراف/ نور الدين طالب، جـ٤، صـ٣٤٠، دار النوادر، وزارة الأوقاف الكويتية، ط١، ٢٠١٢م.

(٤) ينظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، جـ٥، صـ٥١.

أخرى، بل هو أمر يتعلق بالمعنى الذى لا يصلح إلا بالوصل حينًا، وبالفصل آخر"[١].

والوصل بالواو في الحديث الذي بين أيدينا أكد على التسوية في الجزاء بين صورتي القيدين: [مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ] و[مَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ] فمن فعل كلاهما جزاؤه واحد[فَقَدْ غَزا]، وفي ذلك ما يؤكد تنوع أبواب الخير بتنوع أحوال الناس وظروفهم، فمن الناس من فتح الله له أبواب الرزق، فيستطيع بماله أن يوفر للغازي سلاحًا أو مَركَبًا أو زادًا أو غير ذلك مما يُجهز به الغازي، ومنهم من ضُيق عليه في المال، ولكن عنده من الصحة والفراغ ما يمكِّنه من خدمة أهل بيت الغازي بقضاء حوائجهم، ففي الوصل ما يوحي بسعة العطاء الرباني، فلسعة عطاء الله . تعالى . يعطي أجر الغزو في سبيله لمن جهَّز غازيًا في سبيله . سبحانه . ولمن خَلَف غازيًا . في سبيله بخير، فباب العطاء الرباني مفتوح للصِّنفين، وفضل الله يسع الجمع.

ولو أتى الكلام بدون الوصل لفسد المعنى؛ إذ يُفهم أن صورة القيد بـ[من] الشرطية في الجملة الثانية إضراب عن معنى الجملة الأولى، ونقض لما أتت به. فضلًا عن أن تعدد الروابط في الحديث . وذلك بـ[من] المقيّدة مرتين والواو مرة . يجعل معناه يُلقَى في النفس المتلقية كالكل المجتمع، الذي اشتد تداخل أجزائه حتى صارت شيئًا واحدًا، فالشرط نفسه ربطٌ لجملتين وجعلٌ لهما بمثابة جملة واحدة، إذ "الشرط والجزاء جملتان، ولكنا نقول: إنّ حكمَهما حكمُ جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنىً يربط إحداهما بالأخرى"[٢]، وعليه فيكون ربط جملتي الشرط بالواو ربطًا خارجيًا بعد ربط داخلي بـ[من] الشرطية التي تكررت مرتين، مما يوثق عرى التداخل بين البناءين، وفي ذلك تأثير على المتلقين، وإقناع لهم بالفكرة التي يعرضها النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . .

ومما سوغ الوصل بين الجملتين اتفاقهما في معنى الشرطية، وكذلك اتفاقهما في الجواب لفظًا ومعنى، وذلك قوله . صلى الله عليه وسلم . : [فقد غزا]، فضلًا عن أن المعنى فيهما متناسب يأخذ بعضه بعناق بعض، يقول الإمام عبد القاهر عن الواو التي تصل الجمل: " وجملةُ الأمر، أنها لا تجيءُ حتى يكونَ المَعْنى في هذِهِ الجملة لَفْقًا للمعنى في الأخرى ومُضَامًّا له"[٣].

وفي قوله . صلى الله عليه وسلم .: [فقدغزا] في جواب القيدين، تصدير للجواب بـ[الفاء] تلك التي تفيد تسبّبَ فعل القيد في سرعة حصول الجزاء، فـ [الفاء] ... تضم الشيء إلى الشيء، كما تفعل الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقًا بعضه في إثر بعض[٤]، فضلًا عن أن الفاء

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها . علم المعاني، د/ فضل حسن عباس، صـ٣٩٢، دار الفرقان للنشر والتوزيع . الأردن، ط٤، ١٩٩٧م.

(٢) أسرار البلاغة، صـ١١١.

(٣) دلائل الإعجاز، صـ ٢٢٥.

(٤) ينظر: الكتاب، سيبويه، تح/ عبد السلام محمد هارون، جـ٤، صـ٢١٧، مكتبة الخانجي . القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م. ودراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، جـ٢، صـ٢٢٢، دار الحديث . القاهرة، بدون تاريخ.

كثيرًا ما تقتضى . أيضًا . التسبب، إن كان المعطوف جملة[١].

المطلب الثامن
بناء صورة القيد بـ[من] الشرطية على الإيجاز

الإيجاز مزية من مزايا التعبير، إذا اقتضاه المقام، فـ"أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه"[٢]، وتعابير النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . يغلب عليها الإيجاز "وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبضُ قلب يتكلم"[٣].

ومن سمات صورة القيد بـ[من] الشرطية في البيان النبوي الإيجاز، فالبنية التركيبية لصورة القيد، أتت موجزة، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني، فاض بها صاحب ذهن ثاقب، وعقل واع، ونفس يقظة، قادرة على أداء المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، إنها جوامع الكلم التي تؤثِّر في النفوس، وتُقنع العقول، وتخاطب الوجدانات، وتقع في القلوب، وإذا كان الإيجاز سمت بيان النبوة جميعه، فهو في صورة القيد بـ[من] الشرطية، أشد وضوحًا؛ لأن أسلوب الشرط بطبيعته مبني على الإيجاز، إذ هو عبارة عن جملتين تعانقتا في بناء تركيبي واحد، واتحدتا حتى صارتا كالشيء الواحد؛ لتقعا في النفس دفقة واحدة.

وقد أتت شواهد عدة تبرز تلك الخصيصة في القيد بـ[من] الشرطية، من ذلك ما روي عن عائشة، عن النبي . صلى الله عليه وسلم . قال: "مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هلك"[٤]. تأمل صورة القيد ترى كلمات أربع، أتت في بناء شرطي، مكون من قيد: [من نوقش الحساب]، ومقيَّد: [هلك]، وصورة القيد مكتملةً تعرض صورة من عالم الغيب، لصنف من الناس سيناقشون الحساب وسيعذبون فيهلكون.

وصورة القيد التي أمامنا أتت في مقام ترهيب المخاطَبين، عساهم أن يتزودوا من دار الزاد ما ينفعهم في الرحلة الأخروية، فصورة القيد:[من نوقش الحساب] أثارت شوقًا وتطلعًا في نفوس المخاطبين لسماع الجزاء، فأسئلة حائرة، وقلوب واجفة، وعيون متطلعة، ومُقل زارفة، وعقول متحيرة، تتشوف للجزاء، وتتطلع للمقيَّد، فإذا ما أتى، أتى بعد لهفة وأمل وطول ترقب، فيسكن في النفس، ويستقر في الفؤاد، فيتلاشى الشوق، وتنطفئ جذوته ... وهكذا بيان النبوة الخالد يدرك طبائع النفوس الإنسانية، ويخاطبها بما يلائمها، ويوافق طبائعها.

إن بيان النبوة استطاع باقتدار، أن يعرض في هذا البناء التركيبي الموجَز، مشهدًا مهيبًا من مشاهد الآخرة، إنه مشهد مناقشة الحساب، وما فيه من أحداث مهيبة، يتدفق بها مشهد العذاب وويلاته وصنوفه، كل ذلك طواه البيان النبوي طيًا، واختصره اختصارًا، حيث عرضه

---

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تح. د/ مازن المبارك و محمد علي حمد الله، جـ١، صـ١٦٣، دار الفكر ـ دمشق، طـ٦، ١٩٨٥م.

(٢) البيان والتبيين، جـ١،صـ٩٧.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، صـ ١٩٣.

(٤) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، جـ٤، صـ٢٢٠٥.

بيان النبوة في أربع كلمات، فـ"من كمال تلك النفس العظيمة، وغلبَةِ فكره . صلى الله عليه وسلم . على لسانه، قل كلامه، وخرج قصدًا في ألفاظه، محيطًا بمعانيه، تحسَب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة، والكلمات المعدودة بكل معانيها، فلا ترى من الكلام ألفاظًا، ولكن حركات نفسية في ألفاظ، ولهذا... كثرت جوامعُ كلِمه"(١).

المطلب التاسع

التعبير بالمشاكلة في المقيَّد

أتى أسلوب المشاكلة في المقيد بـ[من] الشرطية في بيان النبوة، وذلك في المقامات التي اقتضت ذلك، فـ" المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال"(٢).

والمشاكلة تمد الدلالة بروافد ثرَّة، تتدفق في قناة النص التي تستعمل فيه، بما فيها من تجوُّز لغوي في الاستعمال، وتكرار لصورة لفظية سابقة في الأسلوب، مما يلفت الخاطر، ويستوقف المتلقي، ويثير تساؤله عما يحمله النص من خَصوصية تعبيرية اعتبرها المتكلم، مما يسهم في إيصال المعنى إلى قلب المخاطب.

ومن ذلك، ما روي أن النبي . صلى الله عليه وسلم . قَالَ: "مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ [ص:١٠٥]، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ"(٣).

يقول . صلى الله عليه وسلم . : من [سمَّع]، أي: شهَّر بنفسه وأذاع ذكره، أو عمل عملًا على غير إخلاص؛ يريد أن يراه الناس ويسمعوه، [سمَّع الله به]، أي: كشفه على حقيقته، وفضح أمره، وقيل: معناه: من سمَّع بعيوب الناس وأذاعها، أظهر الله عيوبه، وقيل: أسمعه المكروه. [ومن يرائي] الناس بأن يطلعهم على عمله؛ بقصد الثناء منهم [يرائي الله به] بأن يطلع الناس على حقيقته، وأنه لا يعمل لوجه الله ـ تعالى ـ فيذمه الناس مع استحقاق سخط الله ـ تعالى ـ عليه.(٤)

في الحديث الشريف صورتان، قُيدت كلتاهما بـ[من] الشرطية، وفي صورة كل منهما مجازاة على فعل، والقيد في الصورة الأولى:[سمَّع]، والمقيد: [سمَّع الله به]. والقيد في الصورة الثانية:[يرائي] والمقيد: [يرائي الله به].

والمقيدان: [سمَّع الله به] و[يرائي الله به] صورتان استعاريتان، حسنتهما المشاكلة، وفي التعبير ما يؤكد المعنى المراد، ويوضحه بجلاء، إذ تؤكد الصورة التعبيرية أن الجزاء من جنس

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، صـ ٢٠٥.

(٢) كتاب الصناعتين، صـ١٣٥.

(٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٨، صـ١٠٤.

(٤) ينظر: تعليق. د/ مصطفى البغا على الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، ، جـ٨، صـ١٠٤. و شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ[الكاشف عن حقائق السنن]، جـ١١، صـ٣٣٧٠.

العمل، مما يجعل المتلقي يعاود النظر في سلوكه من جديد؛ كي لا يحيق به ما يشاكل عمله. وفي الاستعارتين والمشاكلتين ما يغرس الخوف والرهبة من فعل القيدين اللذين وردا في الحديث الشريف.

كما أن تكرار الصورة اللفظية بين القيد والمقيد بالمشاكلة، يستلفت المتلقي، ويدعوه إلى أن يُرجِع الفكر مرة بعد مرة، فإذا ما فعل ذلك، فوقف على المعنى المراد بعد معاوده النظر، يكون ذلك أدعى لاستقرار المعنى في نفسه، وسريان الفكرة إلى قلبه، وفي ذلك من الإقناع والتأثير ما لا يخفى.

هذا، ومجيء المشاكلة في بنية القيد بـ[من] الشرطية في البيان النبوي في المقامات التي اقتضت ذلك، خصيصة بارزة، أتت شواهد عدة تؤكدها.

المطلب العاشر
الربط بالفاء بين القيد والمقيد مراعاةً للمقام

قد يقتضي المقام القيد بـ[من] الشرطية والربط بين القيد والمقيد بالفاء، وقد يقتضي المقام ترك الربط بالفاء، والبلاغة تتأتى بموافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال[1]، و[مَن] الشرطية، تحتاج – أحيانًا– الفاء الرابطة بينها وبين جواب الشرط؛ حيث يدل هذا الارتباط على أن الثانية منهما نتيجة للأولى[2]، وأحيانًا لا تحتاج الفاء، ولكل مقاماته وسياقاته.

ومن الأحاديث التي ربطت فيها الفاء بين القيد والمقيد ما روي عن حُمَيْدُ بن أبي حُمَيْدٍ الطَّوِيلُ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . يَقُولُ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ . صلى الله عليه وسلم . ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ . صلى الله عليه وسلم . فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ . صلى الله عليه وسلم . ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ . صلى الله عليه وسلم . إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ،

---

(1) ينظر: كتاب الصناعتين، صـ١٣٥.

(2) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، صـ١٢٧. وشرح المفصل، جـ٢، صـ٤١٢، والنحو الوافي، جـ١، صـ٥٣٥.

وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[١].

وفي بيان معنى قوله . صلى الله عليه وسلم . : [فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي] يقول المُظْهِرِيّ: "رغب عن الشيء: إذا تركَه وأعرضَ عنه، يعني: مَن تركَ ما أَمرتُ به من أحكام الدين فرضًا كان أو سُنةً، عن الاستخفاف بي وعدم الالتفات إليَّ فليس مني؛ لأنه كافرٌ، وأما مَن تركَ لا عن الاستخفافِ وعدم الالتفات، بل عن الكسلِ لم يكن كافرًا، وعلى هذا قوله: [فليس مني] تكون للزجر والوعيد، ويكون معناه: فليس من المُقتَدِين والعاملين بسُنَّتي"[٢].

لقد أتت[الفاء] تربط القيد [من رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي] بالمقيد [فَلَيْسَ مِنِّي]، وتؤكد سرعة ترتُّب المقيد على القيد في الحصول. ففي مقام الترهيب يؤكد . صلى الله عليه وسلم . أن العبد بمجرد رغبه عن سنة النبي . صلى الله عليه وسلم . يخرج من دائرة المقتدين والعاملين بسنته . صلى الله عليه وسلم . وفي ذلك من الترهيب والزجر ما لا يخفى، لذا كان اكتساء المعنى الفاء مطابقة لمقتضى الحال، ومراعاة للمقام، الذي تلائمه الفاء بما تحمل من دلالة على سرعة خروج العبد من دائرة الاقتداء بالنبي . صلى الله عليه وسلم . ، وما يستتبعه ذلك من سخط الله . تعالى . على من رغب عن سنة النبي . صلى الله عليه وسلم . .

فالفاء اقتضاها المقام، وكان يمكن في غير الحديث الشريف أن يؤدَّى أصل المعنى المراد دونها، ولكن النبي . صلى الله عليه وسلم . اعتبرها مع ما يؤدَّي به أصل المعنى المراد، فبلغ بكلامه القلوب، وأثَّر في النفوس، وأقنع العقول، التي لربما ظنَّ أصحابها أن التشدد في أمر العبادة أمر يحمده الإسلام وينشده، فوضح النبي . صلى الله عليه وسلم . لهم ما خفي عن إدراكهم، وما غاب عن أذهانهم، وبين لهم أنهم بما فعلوا يخرجون عن دائرة سنته . صلى الله عليه وسلم . المبنيَّة على اليسر، بل يسارعون بالخروج عن تلك الدائرة الشريفة؛ لذا كانت [الفاء] في موضعها سبيلًا أدى المعنى إلى مسارب النفس. وهكذا ."كلامه . صلى الله عليه وسلم . ... كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة"[٣].

ولا شك أن مراجعة السياق الخارجي للنص " تكشف في كل حال أبعادًا من المعنى لا تنكشف مع الإلمام السريع"[٤]، وبمراجعة السياق هنا يتبين أن الفاء أدعى لملاءمة حال المخاطَبين؛ ذلك أن حال المخاطَبين حرص ومسارعة لاتباع سنة النبي . صلى الله عليه وسلم . حيث جاءوا يسألون أزواجه . صلى الله

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٧، صـ٢ .

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح، جـ١، ص٢٤٦ .

(٣) السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، الرافعي، تح/ أبو عبد الرحمن البحيري، وائل بن حافظ بن خلف، صـ ٢٩ ، دار البشير للثقافة والعلوم . طنطا، ط١، بدون تاريخ.

(٤) دلالات التراكيب . دراسة بلاغية، د/ محمد محمد أبو موسى، صـ٢٢٢، مكتبة وهبه . القاهرة، ط الثانية، ١٩٨٧م.

عليه وسلم . عن عبادته فلما أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها فقالوا ما قالوا، فكانت البلاغة في أن تربط الفاء بين شَطري صورة القيد بـ[من] الشرطية؛ دلالة على سرعة خروج هؤلاء من دائرة سنته . صلى الله عليه وسلم . المبنية على اليسر؛ زجرًا لهم ليفقهوا جوهر الإسلام في التيسير ونفي المشقة.

المطلب الحادي عشر

ثراء صورة القيد بالصورة البيانية

أسهمت الصورة البيانية في تركيب صورة القيد بـ[من] الشرطية، وذلك في المقامات التي اقتضت ذلك، مما أثرى الدلالة، ومنح بنية القيد بـ[من] الشرطية ظلالًا دلالية عانقت التركيب الشرطي، مما مكَّن المعنى المراد في نفوس المتلقين.

ومن ذلك، ما روي عن عبد الله بن عمر . رضي الله عنهما. عن النبي . صلى الله عليه وسلم . ، قَالَ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنّا"(١).

"المُرَاد مِن حمل السِّلَاح عَلَيْهِم: قِتالهمْ. قال الكرماني، أَي: قاتلنا من جِهَة الدّين أَو من استباح ذَلِك"(٢). ففي قوله . صلى الله عليه وسلم . : [مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ] كناية عن القتال واستباحة الدماء، ولا خلاف في أن الكناية أبلغ من التصريح، يقول الإمام عبد القاهر :" قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح"(٣)، ففي التصوير بالكناية قول ببرهان، مما يؤكد المعنى ويجلِّيه.

والصورة الكنائية هنا عرضت المعنى بما يلائم مقام الترهيب، حيث عرضته في صورة مخيفة، تشمئز منها النفس السويَّة، التي يؤرقها ويَقض مضجعها، أن يحمل مسلم على أخيه المسلم سلاحًا، لذلك عبر . صلى الله عليه وسلم . بقوله: [علينا] فقتال مسلم وترويعه كترويع المسلمين جميعهم، فهو . صلى الله عليه وسلم . لم يقل: [من حمل على مسلم] إنما قال:[علينا] ترهيبًا من ذلكم الفعل الذي يُخرج الإنسان من دائرة اتباع هديه . صلى الله عليه وسلم . . يقول الكرماني: "[ليس منا]، أي: ممن اتبع سنتنا وسلك طريقنا"(٤).

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٩، صـ ٤.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، جـ٢٤، صـ٣٧، دار إحياء التراث العربي . بيروت، بدون تاريخ.

(٣) دلائل الإعجاز، صـ٧٠.

(٤) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين الكرماني، جـ٢٤، صـ١٥٤، دار إحياء التراث العربي . بيروت، طـ٢، ١٩٨١م.

المطلب الثاني عشر

مخاطبة الجمع بصيغة الإفراد، خروجًا على خلاف مقتضى الظاهر

من سمات القيد بـ[من] الشرطية، مخاطبة الجمع بصيغة الإفراد، وفي ذلك من التأثير والإقناع للمخاطبين ما لا يخفى؛ فالخطاب كلما كان أخص كان أدعى لاهتمام المخاطَب وتأمله، هذا في جانب المخاطَب، أما في جانب المتكلم النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . فيعكس هذا الأسلوب قربه . صلى الله عليه وسلم . من أمته، فيخاطبهم خطاب القلق على أمر نجاتهم، وكأنه يهمس في آذانهم فردًا فردًا؛ ترغيبًا في الطاعات، وترهيبًا من المعاصي والزلات، وفي هذا الأسلوب من البلاغة ما تركض وراءه الخواطر إدراكًا لمذاقاته ونكاته.

ومن ذلك، ما روي عن أبي هريرة . رضي الله عنه . أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال: "مَنْ أَطاعَنِي فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصانِي"(١).

في هذا البيان النبوي الشريف، بلاغ للأمة جمعاء، فخطابه . صلى الله عليه وسلم . ليس لآحاد الناس، بل إنه للجماعة الإنسانية على تعاقب العصور، فبلاغه . صلى الله عليه وسلم . للعالمين؛ لعالمية رسالته.

وقد آثر البيان الشريف الخطاب الإفرادي، مما يعكس جوهر النفس النبوية الشريفة، الشفيقة على الأمة، التي يكاد صاحبها . صلى الله عليه وسلم . أن يُهلك نفسه أسًى على إعراض أمته، قال تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا"(٢) وهو الحريص عليهم الرؤوف الرحيم بهم، قال تعالى: "لَّقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ"(٣).

وتتجلى بلاغة الخروج على خلاف مقتضى الظاهر هنا، في إشعار كل مخاطَب أن الخطاب له وحده، فكأنه المقصود بالخطاب دون سواه، وفي ذلك ما يسترعي انتباهه، ويملك عليه أقطار نفسه، ويجعله يتأمل الخطاب، ويُنعم النظر فيه، فكأن الحديث شخصي بين النبي . صلى الله عليه وسلم . بمكانته الروحية، والمتلقي بأشواقه الصديانة للذائذ الخطاب النبوي الشريف، وفي ذلك من التأثير والإقناع ما لا يستتر عن خاطر متأمل متأنٍ، وتلك هي البلاغة في أسمى غاياتها، وقدراتها على إنهاء المعنى إلى العقل والقلب والوجدان.

والسبب في تلك النكات أداة الشرط [من]؛ لأنها تختصّ بذواتٍ من يعقل، ولفظُها واحدٌ مذكرٌ، ومعناها معنى الجنس لإبهامها، وهي تقع على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث، فإذا وقعتْ على شيء من ذلك، ورددتَ إليها الضميرَ العائد من صلتها، على لفظها نفسِها، كان مفردًا مذكّرًا؛ لأنه ظاهرُ اللفظ، سواء أردتَ واحدًا مذكرًا، أو مؤنثًا، أو اثنين، أو جماعةً. وإن

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ٩، صـ٦١.

(٢) سورة الكهف، الآية رقم: [٦].

(٣) سورة التوبة، الآية رقم: [١٢٨].

أعدتَ الضمير إليها على معناها، فهو على ما يقصِده المتكلمُ من المعنى(١).

المطلب الثالث عشر

تقييد ما قُيّد بـ[من] الشرطية

لا شك أن تقييد المقيد يوجب ازدياد خُصوص الدلالة، وهو يوجب ازدياد البعد الموجب لقوة الفائدة(٢)، فإذا كان القيد يسوق حركة المعنى تُجاه دلالة محددة ذات قسمات خاصة، فإن تقييد المقيد يزيد من ذلك، فيزداد المعنى به وضوحًا، وتنجلي عن وجهه الأستار، فيكون أكثر إقناعًا وتأثيرًا في المخاطبين، ولتقييد المقيد من مقتضيات الأحوال، ودقائق المقامات ما يستدعه.

ومن نماذج ذلك، ما روي عن أبي هريرة . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"(٣).

ففي القيد بـ[من] الشرطية: [مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا] قيدان: الأول: القيد بالمفعول به في قوله: [رمضان]، والثاني: القيد بالحال في قوله:[إيمانًا واحتسابًا]، وفي المقيد بـ[من] الشرطية: [غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] قيد بالمفعول به [مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] الذي صار نائب فاعل.

ولاشك أن تقييد المقيد فيه عرض للمعنى على صورة دقيقة الخصوصية، آثرها البيان النبوي؛ لدقتها في عرض المعنى، وتجليته في أذهان المخاطبين.

وتأمل الحديث الشريف، دون القيود التي أتت بعد القيد بـ[من] الشرطية، ترى معناه شائعًا عامًا يتناول أيَّ صوم في أيّ وقت، ولكن القيد بالمفعول به: [رمضان] دل على شرف الزمان ومكانته عند الله، وأنه ليس كغيره، وإلا لما كان القيد، وكذلك لو أدرنا الخاطر في النص دون القيد بالحال في قوله:[إيمانًا واحتسابًا] لما كان للمعنى تلك الخصوصية من التقييد بكون الصائم معتقدًا اعتقادًا صادقًا بما يفعل، محستبًا الأجر من الله . تعالى . وحده بلا رياء أو سمعه.

وفي المقيد قيدٌ بالمفعول به: [مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] الذي صار نائب فاعل، فدونه يذهب الخاطر راكضًا وراء قيود شتى تتوارد عليه، فإذا ما أتى القيد: [مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] حددت الدلالة، واكتملت هيئتها في أذهان المتلقين، مما يرغبهم في ذلك العمل على الصورة التي عرضها الحديث. وهكذا نرى تقييد المقيد بـ[من] الشرطية أدعى للبلاغة، إذا طلبه المقام.

---

(١) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، صـ١٢٧، وشرح المفصل، جـ٢، صـ٤١٢، والنحو الوافي، جـ١، صـ ٥٣٥.

(٢) ينظر: كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، صـ١٥١وما بعدها. وشروح التلخيص، جـ٢، صـ٣٢وما بعدها. وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، جـ١، صـ ١٦٧.

(٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، جـ١، صـ١٦.

الخاتمــة

وتضم أهم النتائج التي وقفت الدراسة عليها:

. كثر القيد بـ[من] الشرطية في الصحيحين في مقامي الترغيب والترهيب؛ لأن النفس الإنسانية يحركها الثواب والعقاب، وهما متحققان في القيد بـ[من] الشرطية في المقامين.

. أسلوب الشرط يُلقي بمعنى الشرط والجواب كالكل المجتمع مرة واحدة في نفس المخاطب، وهذا أدعى للاقتناع والتأثر بالفكرة.

. القيد بـ[من] الشرطية يلائم أدب النبوة ، الذي يؤثر أن يأتي الكلام عامًا عن طريق الإبهام والتعميم بـ[من] حتى لا يفضح أو يجرح، فضلًا عن حرصه . صلى الله عليه وسلم . على دعوة الناس جميعًا فرادى وجماعات ذكرانا وإناثًا صغارًا وكبارًا، وهذا ما تحقق بالقيد بـ[مَن] الشرطية.

. مجيء فعل الشرط المقيِّد للمسند في جملة الجواب ماضيًا، يعكس حرصه . صلى الله عليه وسلم . على أمته، ففي مقام الترغيب يعبر بالماضي تفاؤلًا، وطمأنة لهم بتأكيد حصول الشرط المقيِّد للمسند في الجواب، فضلًا عن إشعار المتلقي بإمكان حصول الشرط بالعزيمة والمجاهدة، وفي مقام الترهيب يعبر بالماضي؛ تخويفًا لأمته كي لا يقعوا فيما نَهى عنه، فيؤكد لهم حصول الشرط المقيِّد للمسند في الجواب؛ حتى يرتدعوا رهبة من الله . تعالى . وعذابه.

. في القيد بـ[من] الشرطية تشويق للنفس الإنسانية، وإثارة لها، وتمهيد لمساربها ودروبها؛ لتلقي الجواب، الذي ما إن يساق إليها، حتى يسري في مطاويها، ويستقر في لفائفها، وهذا . بلا شك . أدعى للبلاغة وغاياتها، فالشرط يجعل السامع يَعرُج بخياله محلِّقًا هنا وهناك؛ توقُّعًا وطلبًا للجواب، فإذا ما أتى المقيَّد بعد محاولة طلبه كان كالرِّيِّ بعد الظمأ، إذ الشيء كلما طال انتظاره كان أشدَّ تأثيرًا في النفس، وإقناعًا للعقل، وإمتاعًا للوجدان.

. أتى الضمير العائد على [مَن] الشرطية مفردًا، مع أن المخاطب ليس مفردًا، إنما المخاطب الناس جميعًا، فهم أمة البلاغ؛ وذلك ليتصور كلُّ من يصل إليه الخبر أنه المخاطب به وحده، ولا شك أن الخطاب كلما كان خاصًا كان ذلك أدعى للاستجابة والتأثُّر.

. التعبير بالفعل المضارع في أسلوب الشرط، يعرض الحدث في صورة يستحضرها المتلقي، وكأنه يسمع ويرى، فذلك من شأن المضارع.

. قد يقتضي الحال أن يصاحب القيدَ بـ[مَن] الشرطية في البيان النبوي قيد آخر؛ تزيد به الفائدة، وتتحدد الدلالة.

. الفاء بين القيد والمقيد أكدت الربط بين طرفي البناء الشرطي، وأكدت كون المقيَّد[الجزاء] مسببًا عن القيد[الشرط]، فضلًا عما تفيده من معنى التعقيب والسرعة في ترتُّب المقيد على القيد.

. تعانقت بنى القيود بـ[من] الشرطية في الحديث الشريف في نظم محكم، وسبك متماسك، يشد بعضه بعضا، لبناته مختاره بدقه، كل ذلك في إيجاز يؤكد على تمكنه . صلى الله

عليه وسلم . من فكرته، كما يؤكد على توقد ذهنه، وصفاء قريحته.

- من سمات صورة القيد بـ[من] الشرطية تصعيد المعاني، إذ يبدأ بيان النبوة رحلة المعنى في تصاعد وارتقاء، وفي كل مرتقىً من تلك المرتقيات تتصاعد الدلالة، حتى يتم بناء المعنى كما قصده النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، ومع كل مرتقى من مرتقيات المعنى يزاد شوق المتلقي ركضًا وراء المعنى، ففي حركة المعنى تلك ترقب وتطلع من المتلقي نحو النهاية، وفي ذلك من البلاغة والخِلابة ما لا يخفى، فكلما زاد الشوق وطال التتبع من المتلقي لرحلة المعنى، استقر المعنى في الذهن، وأثَّر في النفس، وأتى كالريّ بعد الظمأ، والغيث بعد طول جدب، وفي ذلك الأسلوب ما يؤكد فقه النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . بأسرار النفوس وطبائعها.

- صورة القيد بـ[من] الشرطية مبنية على الإيجاز، فالقيد والمقيَّد انسبكا معًا في بناء تركيبي يشد بعضه بعضًا، حتى خرج الجزآن كالجملة الواحدة، ولكن مفردات هذا البناء أتت تحمل من الدلالات الدافقة بالمعاني الثَّرة الموحية ما يثري الدلالة، ويجلِّي الفكرة، ويحقق قصد النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ترغيبًا أو ترهيبًا، وفي ذلك ما يعكس ما تنطوي عليه بنية صورة القيد بـ[من] الشرطية من ألفاظ ذوات طاقات إيحائية قادرة على نقل مرادات النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، بل تصوير ما هو معتمل في النفس النبوية الزكية من المعاني الشريفة.

- من خصائص القيد بـ[من] الشرطية في بيان النبوة، وصل الجملة المقيدة بـ[من] الشرطية بمثلها، وذلك في المقامات والسياقات التي تقتضي ذلك، ولا شك أن الوصل تكمن وراءه نكات وأسرار، بكشفها تتدفق المعاني والدلالات التي تسفر عن مراد المتكلم. ولا شك أن ربط جملتي الشرط بالواو ربط خارجي بعد ربط داخلي بـ[من] الشرطية التي تكررت مرتين، مما يوثق عرى التداخل بين البناءين، وفي ذلك تأثير على المتلقين، وإقناع لهم بالفكرة التي يعرضها النبي . صلى الله عليه وسلم . .

. أتى أسلوب المشاكلة في صورة القيد بـ[من] الشرطية في بيان النبوة، وذلك في المقامات التي اقتضت ذلك. والمشاكلة تمد الدلالة بروافد ثرَّة، تتدفق في قناة النص الذي تستعمل فيه، بما فيها من تجوُّز لغوي في الاستعمال، وتكرار لصورة لفظية سابقة في الأسلوب مما يلفت الخاطر، ويستوقف المتلقي، ويثير تساؤله عما يحمله النص من خصوصية تعبيرية اعتبرها المتكلم، مما يسهم في إيصال المعنى إلى قلب المتكلم.

. أسهمت في بناء صورة القيد بـ[من] الشرطية الصورة البيانية، وذلك في المقامات التي اقتضت ذلك، مما أثرى الدلالة، ومنح بنية القيد بـ[من] الشرطية ظلالًا دلالية عانقت التركيب الشرطي، مما مكَّن المعنى المراد في نفوس المتلقين.

ثَبَت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١) أسرار البلاغة، الإمام/ عبد القاهر الجرجاني، تح/محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، بدون تاريخ.

٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٨، ٢٠٠٥ م.

٣) الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني ، تح/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط دار الجيل . بيروت ، ط٣، بدون تاريخ .

٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة . بيروت، بدون تاريخ.

٥) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الشيخ/ عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ـ القاهرة، ٢٠٠٥م.

٦) البلاغة العربية، د/ عبد الرحمن حبنكة، ط دار القلم، ط١، ١٩٩٦م.

٧) البلاغة النبوية، د/ محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية . القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م .

٨) البلاغة فنونها وأفنانها . علم المعاني، د/ فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع . الأردن، ط٤، ١٩٩٧م.

١) البلاغة والتحليل الأدبي، د/ أحمد أبو حاقة، ط دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

٢) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين، د/ عودة خليل أبوعودة، ط الأولى، دار البشير. الأردن، ١٩٩١م.

٣) البيان والتبيين، الجاحظ، تح. الشيخ/ عبد السلام هارون، المطبعة التجارية الكبرى . القاهرة، ط١، ١٩٢٦م.

٤) تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، تح/ مجموعة من المحققين، ط دار الهداية، بدون تاريخ.

٥) تهذيب اللغة، الأزهري، تح/ محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٦) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، تح. د/ محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤ م.

٧) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه، الإمام/ محمد بن إسماعيل البخاري، تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د/ مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة ، مصورة عن السلطانية، ط١، ١٤٢٢هـ.

٨) الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تح . د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، ط دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الأولى، ١٤١٣هـ .
٩) حروف المعاني والصفات، الزجاجي، تح/ علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
١٠)خصائص التراكيب ـ دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة . القاهرة ، ط السابعة، بدون تاريخ .
١١)خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٢م.
١٢)خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق، ١٩٩٨م.
١٣)الخصائص، ابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، بدون تاريخ.
١٤)دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث ـ القاهرة، بدون تاريخ.
١٥)دلالات التراكيب . دراسة بلاغية، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبه . القاهرة، ط الثانية، ١٩٨٧م.
١٦)دلائل الإعجاز، الإمام/عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة . القاهرة، ط الثالثة، ١٩٩٢م.
١٧)رصف المباني في شرح حروف المعاني، المالَقي، تح/ أحمد محمد الخرّاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، بدون تاريخ.
١٨)السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، الرافعي، تح/ أبو عبد الرحمن البحيري، وائل بن حافظ بن خلف، دار البشير للثقافة والعلوم . طنطا، ط١، بدون تاريخ.
١٩)شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ[الكاشف عن حقائق السنن]، تح. د/عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار . الرياض، ط١، ١٩٩٧م.
٢٠)شرح المفصل، ابن يعيش، قدم له الدكتور/ إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٢٢ هـ .
٢١)شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تح/ ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد . السعودية، ط٢، ٢٠٠٣م.
٢٢)شروح التلخيص، ط دار إحياء الكتب العربية . القاهرة، بدون تاريخ.
٢٣)الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، الناشر/ محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٨هـ.
٢٤)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، الجوهري ، تح/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين . بيروت، ط الرابعة، ١٤٠٧هـ.

٢٥)الصناعتين، لأبي هلال العسكري ،تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية . بيروت، ١٤١٩هـ .
٢٦)الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، دار الكتب العلمية . بيروت ، بدون تاريخ .
٢٧)عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي . بيروت، بدون تاريخ.
٢٨)العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١م.
٢٩)فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، تح/ عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٢م.
٣٠)فقه بيان النبوة منهجًا وحركة، د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، ط١، ١٩٩٢م.
٣١)كتاب الأُزْهيَّة في علم الحروف، الهَرَوي، تح/عبدالمعين الملّوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق،١٩٩٣م.
٣٢)كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية . بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
٣٣)كتاب العين، الخليل بن أحمد، تح. د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون تاريخ .
٣٤)كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة، ٢٠١٣م.
٣٥)كتاب حروف المعاني، الزجاجي، تح. د/علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة . دار الأمل، بدون تاريخ.
٣٦)الكتاب، سيبويه، تح/ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي . القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
٣٧)الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين الكرماني، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ط٢، ١٩٨١م.
٣٨)لسان العرب، ابن منظور، تح / عبد الله الكبير وأصحابه، ط دار المعارف، بدون تاريخ .
٣٩)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح / أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ، بدون تاريخ .
٤٠)مخارج الحروف وصفاتها، ابن الطّحان، تح. د/ محمود يعقوب تركستاني، ط بيروت، ١٩٨٤م.
٤١)المخصص، ابن سيده، تح/ خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٤٢)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي، ط دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٤٣)المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، الإمام/ مسلم بن الحجاج، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي . بيروت، بدون تاريخ.

٤٤)المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، المكتبة العلمية ـ بيروت، بدون تاريخ.
٤٥)معاني الحروف، الرماني، تح.الشيخ/عرفان سليم حسونة، المكتبة العصرية . بيروت، بدون تاريخ.
٤٦)معجم الفروق اللغوية، أبوهلال العسكري، تح.الشيخ/ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقُم، ط١٤١٢،١هـ.
٤٧)معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تح/عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
٤٨)مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تح. د/ مازن المبارك و محمد علي حمد الله، دار الفكر ـ دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.
٤٩)المفاتيح في شرح المصابيح، المُظْهِري، تح/ لجنة مختصة من المحققين، بإشراف/ نور الدين طالب، دار النوادر، وزارة الأوقاف الكويتية، ط١، ٢٠١٢م.
٥٠)مفتاح العلوم، السكاكي، تح/ نعيم زرزور، ط دار الكتب العلمية . بيروت، ط الثانية، ١٩٨٧م .
٥١)المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح/ صفوان عدنان الداودي، ط دار القلم . دمشق، الدار الشامية . بيروت ،ط١، ١٤١٢هـ.
٥٢)من بلاغة النظم العربي . دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ عبدالعزيز عبد المعطي عرفة ، ط٢، عالم الكتب . بيروت،١٩٨٤م.
٥٣)النحو الوافي، د/ عباس حسن، ط دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة، بدون تاريخ.
٥٤)النقد الأدبي أصوله ومناهجه، أ/ سيد قطب، دار الشروق ، ط الثامنة، ٢٠٠٣م.
٥٥)النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د/ محمد طاهر درويش، ط دار المعارف . القاهرة، ١٩٧٩م.
٥٦)نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تح. د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٩٧٨م.

ثَبَت الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	المقدمة	٥٥٠
٢	التمهيد:	٥٥٣
٣	تحرير المصطلحات، وبلاغة القيد بـ[من] الشرطية	٥٥٣
٤	أولًا : تحرير المصطلحات	٥٥٣
٥	ثانيًا: بلاغة القيد بـ[من] الشرطية	٥٥٣
٦	المطلب الأول: تصعيد المعاني في صورة القيد بـ[من] الشرطية	٥٥٦
٧	المطلب الثاني: تقديم الجزاء على العمل في صورة القيد بـ[من] الشرطية	٥٦٠
٨	المطلب الثالث: تقديم العمل على الجزاء في صورة القيد بـ[من] الشرطية	٥٦٤
٩	المطلب الرابع:وصل الجمل المقيدة بـ[من] الشرطية واشتراكها في المعنى الأم	٥٦٦
١٠	المطلب الخامس: بناء القيد بـ[من] الشرطية من بنىً موحية إثراءً للدلالة	٥٧٤
١١	المطلب السادس: قوة السبك بين القيد والمقيَّد	٥٧٧
١٢	المطلب السابع: وصل جملتين مقيدتين بـ[من] الشرطية اختلف العمل فيهما والجزاء واحد.	٥٧٨
١٣	المطلب الثامن: بناء صورة القيد بـ[من] الشرطية على الإيجاز	٥٨٠
١٤	المطلب التاسع: التعبير بالمشاكلة في المقيَّد	٥٨١
١٥	المطلب العاشر: الربط بالفاء بين القيد والمقيد مراعاةً للمقام	٥٨٢
١٦	المطلب الحادي عشر: ثراء صورة القيد بالصورة البيانية	٥٨٤
١٧	المطلب الثاني عشر: مخاطبة الجمع بصيغة الإفراد، خروجًا على خلاف مقتضى الظاهر	٥٨٥
١٨	المطلب الثالث عشر: تقييد ما قُيِّد بـ[من] الشرطية	٥٨٦
١٩	الخاتمة	٥٨٧
٢٠	ثبت المصادر والمراجع	٥٨٩
٢١	ثبت الموضوعات	٥٩٣